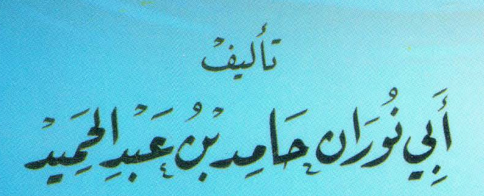


كتاب منهجي يبحث في أسباب النصر الحقيقية

بعيداً عن الانحرافات المنهجية






تسهيل النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م
رقم الإيداع
٢٩٧٠ / ٢٠٠٥

دار الاتباع

١٤ ش محمود حسن- من أحمد عرابي- مساكن عين شمس.

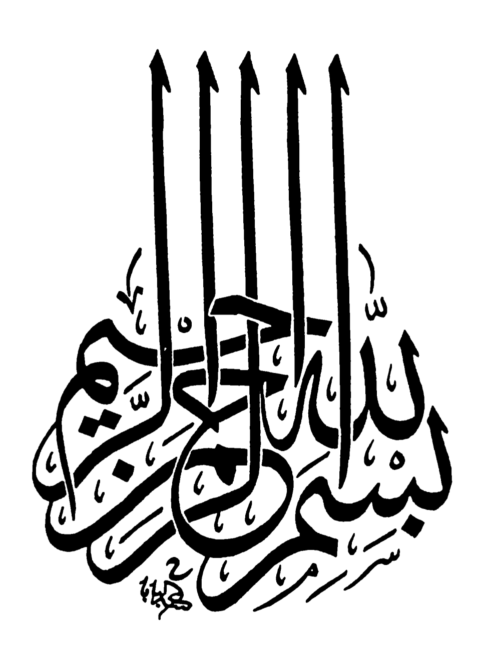
هاتف رقم: ٠١٠٢٦٩٦٣٤٧



كتاب منهجي يبحث في أسباب النصر الحقيقية
بعيداً عن الانحرافات المنهجية

تأليف
أبي نوران حامد بن عبد الحميد





مقدمة تسهيل النصر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

إن الله- تعالى- أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، فقال:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وإن من التعاون أن ييسر بعضنا لبعض مرادَه، طالما أنه مرادٌ على الجادة والصواب.

وهذا التسهيل يكون بأمرين لا ثالث لهما في دنيا الناس:

الأول: الدلالة على طريقه وكيف يصل إليه، فهذا من التسهيل بلا شك.

والثاني: القيام ببعض هذا المراد أو كلِّه نيابةً عمن أردت تسهيل الأمر له.

فإذا قلنا: «تسهيل النصر» فالمراد: الدلالة على طريقه وكيف نصل إليه.

فالمقصود بالتسهيل هنا هو: ذكر الأسباب الحقيقية للنصر!!

فإن من عَلِم السبب الحقيقي - وإن كان صعبًا- فقد سَهُلَ عليه الأمر.

بخلاف من ظنَّ أمرًا سهلًا أنه الطريق وليس كذلك فقد صعب عليه الأمر.

فلو أن إنسانًا يريد أن يتعلم «أحكام التجويد»، وأردت أن تسهل له هدفه فقلت له: الأمر بسيط جدًّا!! فقط كلَّ يومٍ افتَحْ إذاعة القرآن الكريم، واستَمِعْ إلى تلاوة القرآن لمدة ساعة، ولن يمر عليك شهر إلا وأنت: أحفظ من «أُبَي» وأقرأ من «ابن أم عبد»، وأوفق من «عبد الله بن قيس».

فهل أنت- بهذا- تكون قد سهلت عليه الأمر؟!!

أبدًا، بل صعَّبْتَ عليه الأمرَ جدًّا؛ لأنك دللته على غير الطريق ولو كان سهلًا!!

وأما الآخر الذي يقول له: إن طريق تعلُّم «أحكام التجويد» أن تقرأ على شيخ مُتْقِنٍ، يُوقِفُكَ عند كُلِّ خطإٍ وتصحَّ عليه القرآن كلَّه: هذا هو الذي سهَّلَ عليه هدفه، وقَرَّبَ له غايته، لَمَّا دلَّه على الطريق الصحيح ولو كان طويلًا.

❋ ❋ ❋

والنُّصح يقتضي أن تدل الناس على الطريق الصواب ولو كان طويلًا.

لماذا نخدعهم وندلهم على ما لا يوصلهم لهدفهم؟!!

أشفقةً عليهم؟!!

ثم نتركهم يتجرعون في كل خطوة مرارة البعدِ عن الطريق الصحيح؟!!

إن الطريقَ الصحيحَ لا يُتعِبُ ولو كان طويلًا.

وإنَّ الطريق الغلطَ يتعب ولو كان قصيرًا!!

وانظر كيف أن موسى- عليه السلام- ما ذكر التعب إلا بعد أن تجاوز المكان المَوْعِدَ، وأصبح يسير في غير الطريق المرادِ؟!!

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾ [الكهف: ٦٢].

فكلُّ من دلَّكَ على الطريق الحقيقي فقد سهل عليك، ولو دلك على شيء صعب، وكل من دلك على غير الطريق فقد صعَّب عليك، ولو دلَّك على أمر سهل.

هذا، وإن النصر غايةٌ تعلَّق الناس بها، وتَعلَّلَ الناس وعلَّلوا أفعالهم بها، حتى وإن كانت هذه الأفعال من موانع النصر في الحقيقة!!

فالاغتيالات، والمظاهرات، والدخول في الانتخابات، والانسلاخ شيئًا فشيئًا عن شعائر الإسلام وسنن الهادي البشير، وكل ذلك طلبًا لنصر دين الله وعزته.

والمداهنة، والسكوت، وتمييع القضايا، وتهميش العقيدة، وعدم توضيح المنهج الحق طلبًا- ويا للعجب- للمنهج الحق[1].

---

(١) ويسمونها بغير اسمها فيقولون: «مصلحة الدعوة»، وآهٍ على هذه الكلمة، كم تحملت من تفريط، وكم أخرجت مناهج المفلسين دعاةً- زعموا- من هذا النوع الممسوخ بمقتضيات هذه العبارة: مصلحة الدعوة.

وأظهر ذلك: «حلق اللحى» فهو أول ما يتقربون به لهذه العبارة.

* يقول الشيخ عبد العزيز بن باز (مجموع فتاوى ١٠/ ٨٢):

«أما الحلق فلا أعلم أحدًا من أهل العلم قال بجوازه».

* وقال (مجموع فتاوى ١٠/ ٩١):

«لا يجوز للمسلم أن يحلق لحيته لأسباب سياسية، أو ليمكن من الدعوة، بل الواجب عليه =

وإذا قيل له في ذلك، من باب الوعظ والتذكير وليس من باب النصر والتمكين، كانت إجابته أن يسأل: وهل إطلاق اللحية أو جعل الثوب إلى نصف الساق، أو تغطية وجه المرأة سيعيد المسجد الأقصى!!

والإجابة الجدلية: وهل تَرْكُ ذلك سيعيد المسجد الأقصى؟!!

والإجابة الشرعية على سؤاله أن نقول: نعم، هذا من أسباب عودته.

فانظر إلى أي حالٍ وصلنا؟!!

أما أسبابُ النصر فتركناها، وأما موانعه فأتيناها!!

=

إعفاؤها وتوفيرها؛ امتثالًا لأمر الرسول ﷺ فيما صح عنه من الأحاديث، ومن ذلك قوله ﷺ: «قصوا الشوارب وأعفوا اللحى، خالفوا المشركين» متفق على صحته؛ فإذا لم يتمكن من الدعوة إلا بحلقها انتقل إلى بلاد أخرى يتمكن من الدعوة فيها بغير حلق، إذا كان لديه علم وبصيرة؛ عملًا بالأدلة الشرعية في ذلك...».

وأظهر آثارها عليهم وعلى الناس: صرف وجوه الناس عن العلماء الربانيين الكبار وطريقتهم في الدعوة التي هي طريقة الأنبياء.

وتحبيب صور أنفسهم الممسوخةِ وطريقتِهم في الحديث: من مداعبة عواطف المتفرجين (ولا أقول: المتعلمين) وتغليبٍ للَّهجة العامية، وتشبهٍ بالممثلين في المهزلات (المسرحيات) وغير ذلك من البلايا والرزايا.

ولو لم يكن منهم إلا «مزاحمة العلماء الكبار» لكفى، فكيف بالشاذ من الفتاوى؟ والبعيد من الرخص؟ والضعيف من الحديث؟ ودعوتِهم بهيئتهم وصورتهم إلى مخالفات للكتاب والسنة؟!!

وآفةُ ذلك مع الجهل: التعجل !!

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

* يقول الشيخ ابن باز (٦/ ٤٥٠):

«وليس هناك طريق أصلح للدعوة من طريق الرسل فهم القدوة وهم الأئمة وقد صبروا».

والناس- مع بالغ الأسى- تجد لهم زهادة زائدة في الكلام عن أسباب النصر الحقيقية، لما فيها من ثقل الحق، وتَبِعَاتِ الاعتراف به. كما قيل:

الحقُّ قد تعلَمُهُ ثقيلُ يأباه إلا نفر قليلُ

وقد تمر الساعات في الحديث عن الأخبار، والجرائد، والمجلات، والتحليلات، والمقالات، وتجد لهم طول نفس وتفرغًا.

فإذا انتقلت إلى الأسباب الحقيقية- الداخلية وليست الخارجية- وألقيت بها بين أكتافهم، تململوا وتفرقوا وحضرتهم شواغلُهم.

وأصبح الناس على «نوعين» ينتهيان إلى «نوع ثالث»:

فالنوع الأول: من أحسن الظن في هذه الأسبابِ الوهميةِ أو غير الأصلية، فاندفع في طلبها، حتى إذا علم- بعد وقتٍ- أنها لا تؤدي إلى شيء: قنط، وسكن، وانصرف إلى حياته، وباع قضيته إلى أبد الأبد.

والثاني: نظر في نفس هذه الأسباب وحضره تعسرها، ووجد أن بينه وبين أن يحققها سدودًا ضخامًا، وأمورًا عظامًا، فآثر السلامة حتى عن مجرد المحاولة، وانصرف إلى حياته يتابع بين الحين والحين أخبار ظهور المهدي!!!

وهذان النوعان يفرخان: «**النوع الثالث**» وهو الذي كثر في الأمة وهو: المنصرف عن هذه القضية برمتها.

فمنهم من يوفقه الله إلا من يَدُلُّهُ على أن الأمل مازال موجودًا، وعلى أن طريق النصر سهلٌ، يستطيع الجميع أن يشارك فيه؛ بل يجب على الجميع أن يشارك فيه، بلا تَعَسُّرٍ يؤدي إلى يأسٍ ولا تخبُّطٍ يجر إلى فشل.

ومنهم من لا يجد، والموفَّق من وفَّقه الله تعالى.

هذا، وقد يُجَنَّدُ كلامي هذا لخدمة غرضٍ لا أقصده، بل أقصد عكسه، بلْ

أقصد إبطاله، وهو أن هذا الكلام إنما هو في وصف طريق النصر لمن يريدون الوصول إلى الحكم ومنازعةِ الأمرِ أهلَه!!

والحق أني لا أريد بكلامي هذا في كتابي هذا إلا الحديثَ عن نصر الإسلام الذي يعيش أهلُه حالَ الضعفِ، بعد أن لم ينصروا الإسلامَ في نفوسهم ثم علَّقوا ضعفهم وهوانهم على أسباب خارجةٍ عن مسئوليتهم، لتَتِمَّ لهم راحةُ البال، وقناعةُ النفس بأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بشيء، لأنَّ الأمر معلق- بزعمهم- برقاب أناسٍ آخرين.

حتى ضاعت مقوماتُ النصر وأسبابُه بين تنصُّلٍ واتِّهام.

لأجل كل هذا كتبت هذه الكلمات نصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وتعاونًا على تسهيل أمر النصر.

أسأل الله تعالى لي ولكم الهداية والتوفيق.

أبو نوران حامد بن عبد الحميد

هضبة المقطم العليا في غرة ربيع الأول

لعام ١٤٢٤ من هجرة سيد ولد آدم

الحق يعلو والباطل في سفل

قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْـحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وروى الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبًا، فجعل يطعنها بعود كان معه ويقول:

«جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا. جاء الحق وما يُبدئ الباطلُ وما يُعيد»[١].

هذا حكم الله ورسوله:

الحق لا يُغلب والباطل لا يَغْلِب.

بل الحق دائمًا غالب، والباطل دائمًا مغلوب مقهور!!

وسر ذلك أن الباطل يحمل في نفسه أسباب هزيمته فكيف يَغلِب؟؟

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

فالباطل في نفسه زهوق، ليس «مزهوقًا» بل «زهوقًا».

هذا شأن الباطل!!

هذا طبعه، يحمل في نفسه أسباب هزيمته، لا تتخلف عنه أبدًا.

---

(١) البخاري: كتاب المظالم، باب: هل تكسر الدنان التي فيها الخمر.

ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة.

إلا أن هذه الصفة في الباطل لا تظهر عليه، ولا تتحقق فيه إلا إذا: «جاء الحق».

﴿وَقُلْ جَاءَ الْـحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.

فالأمر إذًا أمرُ: «مجيءٍ وذهاب».

فإذا جاء الحق ذهب الباطل وأظهر طبعه.

وأما الباطل فلا مجيء له أصلًا في وجود الحق.

فمثلهما كمثل: «النور والظلام»:

فالنور يُذهب الظلامَ، والظلامُ لا يُذهب النورَ.

الأمر أمر مجيء وذهاب: أما الحق فهو موجود إلى قيام الساعة، وأما الباطل فهو موجود إلى قيام الساعة.

فما عاد إلا أن نستدعي الحقَّ إلى ساحة النزال، كما يستدعي الإنسان منا المصباح إلى ساحة الظلام.

وعندها سترى ما يسرُّك، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

❋ ❋ ❋

وأخطأ الناس لما قالوا: هناك صراع بين الحق والباطل!!

فالباطل أحقر من أن يُصارِع!!

والحق أعظم من أن يُصَارَع!!

وإنما هي لحظة: لحظةُ ظهورِ الحقِّ ومجيئه هي لحظةُ زهوقِ الباطلِ واضمحلالِهِ.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْـحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] أي: نرمي بالحق على الباطل، فليس الحق هو الذي يرمي بقذيفة على الباطل، بل

الحق هو القذيفةُ نفسُها!!

ومن الذي يقذفها؟ الله تعالى!!

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يعني يصيب دماغه.

والدمغ هو شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، وإذا بلغ الشجُّ الدماغَ، فلا أمل في حياة المشجوج.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾

(إذا) هذه هي التي يسميها أهل اللغة: «إذا الفجائية»[1].

كالتي في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]. وذلك ردًّا على قول منكري البعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١-١٢].

قالوا ذلك ينكرون البعث ويستصعبونه، فذكر الله تعالى أنها زجرة واحدة، لكل الناس لا تأخذ وقتًا وإنما فجأة تجد كل الناس على سطح الأرض.

فمجرد ظهور الحق: زهوق الباطل.

فليس هناك صراع، لأن الباطل أحقر من أن يُصارِع.

---

(١) إذا الفُجَائية: تَختَصُّ بالجُمل الإسميَّةِ ولا تَحتاجُ إلى جَواب، ولا تَقَعُ في ابتداء الكلام، ومعناها: الحال، والأرجحُ أنها حرفٌ، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [الآية ٢٠ من سورة طه].

وتكون جوابًا للجزاء كالفاء قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الآية ٣٦ من سورة الروم]. وتَسُدُّ مَسَدَّ الخبر، والاسم بَعْدَهَا مبتدأ، تقول: «جئتك فإذا أخوك». التقدير: «جئتُك ففاجأني أخوك». وتقول أيضًا: «دخلتُ الدارَ فإذا بصديقي حاضرٌ» بصديقي: مبتدأ والباء: حَرْفُ جَرٍّ زائد، وحاضرٌ: خبر. انظر معجم القواعد العربية لعبد الغني الدقر.

فما عاد إلا أن نستدعي الحقَّ إلى ساحة النزال ليَزْهَقَ الباطلُ في الحال.

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٨):

«ومن سنة الله: أنه إذا أراد إظهارَ دينه أقامَ مَنْ يعارضه فيُحقُّ الحقَّ بكلماته ويقذفُ بالحقِّ على الباطل فيَدْمَغُه فإذا هو زاهقٌ».

* * *

والحق عالٍ والباطل في سفل:

هذه الصورة لا تتغير ولا تتبدل مواضعها!!

فإذا أردنا أن نرتفع تعلقنا بالحق فارتفعنا على الباطل وأهله.

وأما إذا ضعفت نسبتنا إلى الحق، نظرنا إلى الباطل وأهله، وظننا أنهم أعلى منا، والصواب أننا نحن الذين نزلنا عنهم.

فالأمرُ إذًا أمر نسبة.

وأخطأ من قال: قتلوا الإسلام، أبادوا الإسلام، ارحموا الإسلام.

فكل ذلك صحيح لو نسبوه للمسلمين وليس للإسلام.

كان المسلمون في العهد الأول نسبتهم للإسلام والحق على الغاية، حتى تكاد نقطة الإسلام أن تنطبق على نقطة المسلمين.

والنصر دائمًا مع الإسلام مع الحق، فكان مع المسلمين أيضًا.

وشيئًا فشيئًا ابتدع الناس فابتعدوا عن الإسلام، فاختلفت نقطة الإسلام عن نقطة المسلمين، وذهب النصر مع الإسلام.

وأصبح المسلمون يبتعدون عن النصر، بحسب بعدهم عن الإسلام الحق.

والخلاصةُ: إن عودتنا إلى ديننا هي طريق عزنا ونصرنا وتمكيننا.

زوال الاستضعاف

إن الأمة المسلمة تعيش حالًا من الاستضعاف لم تمر عليها من قبل!! مع أنها قد مر عليها أعداء أعتى من أعدائها الحاليين!!

ولكن الفارق أن جسد الأمة كان قويًا يستطيع أن يتحمل، وأما الآن فقد استبد بنا الضعف، حتى إن أقل نبحة لأضعف كلب أصبحت تخيفنا.

إن الجسد إذا كان قويًا، فإنه يستطيع - بعون الله - أن يتحمل أشد الأمراض، وأما إن كان ضعيفًا، فإنه يتضرر ويتأذى بأقل شيء، بل قد يكون هلاكه في نسمة هواء.

هذا استضعاف شديد ولا زوال لهذا الاستضعاف إلا بالتغيير!!

إلا بتغيير ما بأنفسنا.

قال الله تعالى: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾** [الرعد: ١١].

جعل الله - برحمته وحفظه - للإنسان معقبات من الملائكة، بين يدي العبد منا ومن خلفه، تحفظه بأمر الله من الجن والأمراض والهوام وسائر الأعداء.

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**

يعني: إن الله لا يغير ما بقوم من حفظ الله لهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حفظهم له.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس: «**احفظ اللهَ يحفظْكَ**»[1]. وحفظنا لله حفظ دينه وصيانته واتباعه.

فليس من أهل بيت ولا قرية، يكونون على طاعة الله، فيتحولون إلى معصيته، إلا تحوَّل الله مما يحبون إلى ما يكرهون.

وليس من أهل قريةٍ ولا بيتٍ، يكونون على معصية الله، فيتحولون إلى طاعته، إلا تحوَّل الله مما يكرهون إلى ما يحبون.

ولا يلزم أن يكون هذا التحول والتغيير من الجميع!!

فقد سئل النبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟!!

قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[2].

بل لا يلزم أن يكون عدد المفسدين أكثر من عدد الصالحين، بل إذا كان الفساد كثيرًا فحسب.

فالعبرة في الفساد «**بكثرته**» وليس «**بأكثريته**».

❊ ❊ ❊

وفي غزوة أحد لما خالف بعض الرماة الأمر الشرعي[3] من النبي ﷺ بعدم

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب: ٢٢، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري: كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج.

ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بإصبعيه: الإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله ... الحديث.

(٣) فشا في المتكلمين عن الغزوات من المتأخرين أن مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ هو من قبيل =

ترك موضعهم على الجبل، جاءتهم الهزيمة فتعجبوا عندها وقالوا: «أنى هذا»؟!!

يعني: كيف هذا؟!!

ولو كان في زمانهم «محللون عسكريون» لخرجوا عليهم بآرائهم، ولقالوا: إنما جاءت الهزيمة من فارق العَدد والعُدد!!

أو لقالوا: بل بسبب انسحاب عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الجيش من الطريق!!

أو لقالوا: بسبب مهارة خالد بن الوليد وكان مازال على كفره.

ولكنْ جاءت الإجابة من الله تعالى لتُعلِمَ أن السبب داخلي أصلًا، وليس خارجيًّا!! فلا تشغلوا أنفسكم بالبحث عنه خارج أنفسكم.

فقال تعالى:

﴿أَوَ لَـمَّآ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

يعني: أولما أصابتكم مصيبة أُحُدٍ، وهي قتل سبعين من الصحابة، قد أصبتم

=

مخالفة «الأمر العسكري» من القائد العام.

وما يعنينا هنا أن ما وقع بالمسلمين من الهزيمة، ليس من هذا الباب أصلًا، وإنما هو من باب مخالفة أمر النبي ﷺ، فكان هذا من باب «الذنوب» التي استحقُّوا بها رضي الله عنهم ما حصل من تأخير النصر عنهم.

ولو تحقق الخير في غير ما أمَرَ به القائد العسكري جاز الأخذ بخلافه أو تعين.

وأما الأمر الشرعي فلا مَجال لمخالفته بحال، فهو ذنب حتى وإن تحقق في عقل المأمور به -لخلل ما- أن الخير في غيره.

فتنبه.

مثليها في بدر، حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين، والمأسور في حكم المقتول، لأن الآسر إذا أراد أن يقتله قتله. قلتم: أنى هذا؟: كيف نُغْلب وفينا رسول الله والقرآن والوحي؟! ونحن على الحق وهم على أبطل الباطل؟!

فجاء الجواب: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أما الله فهو على كل شيء قدير، وأما ما حصل كيف حصل؟! فهذا من عند أنفسكم؛ فإياك أن تقول: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قومٍ سلط عليهم من هم شر منهم كما سُلط على بني إسرائيل كفارُ المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولًا.

وتأمل كيف نُسبت الهزيمة إلى أنفس الجميع مع أن الذي خالف هم بعض الرماةِ من الجيش من الصحابة!!

فليس كلُّ الصحابةِ جيشًا، وليس كلُّ الجيش رماةً، وليس كلُّ الرماةِ قد خالف، ومع ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ وليس من عند أنفس بعضكم.

فلو خالف بعض المسلمين لسبب الهزيمةَ للجميع، والاستضعافَ للكل؛ لأننا كلنا في سفينة واحدة، فمعصية الواحد منا تضر الجميع.

وحديث السفينة معروف- إن شاء الله-:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

* قال القرطبي (تفسيره ٧/ ٣٩٢) بعد ذكره حديث السفينة:

«ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال علماؤنا: فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها.

«فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. فالجواب: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره؛ فإذا سكت عليه فكلهم عاصٍ هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة».

فلا تنشغل بالخطوط التي رسمت بين البلاد على الخريطة فكلنا في سفينة واحدة رغم ذلك فلابد من الأخذ على يد الظالم.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يعني: واتقوا فتنة تتعدى الظالم العاصي فتصيب الصالح الساكت والطالح العاصي[1].

---

(١) قال صاحب تحفة الأحوذي (٦/ ٣٢٩): «قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾. أي: بل تصيبكم عامة بسبب مداهنتكم.

والفارق بين المداهنة المنهية، والمداراة المأمورة أن المداهنة في الشريعة أن يرى منكرًا ويقدر على دفعه، ولم يدفعه حفظًا لجانب مرتكبه أو لجانب غيره، لخوف أو طمع أو لاستحياء منه أو قلة مبالاة في الدين.

=

❋ قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٤):

«وإنما تنفى الفتنة بالاستغفار من الذنوب والعمل الصالح».

❋ وقال (١٧/ ٣٨٢):

«وقرأ طائفة من السلف: (لتُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصة) وكلا القراءتين حقٌّ، فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم وتارك الإنكار عليه قد يُجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه، وقد يُجعل ظالمًا باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب، وعلى هذا قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فأنجى الله الناهين وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا: ﴿لم تعظون قومًا﴾ فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين فأنكروا بحسب قدرتهم. وأما من ترك الإنكار مطلقًا فهو ظالم يعذَّب كما قال النبي ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغيِّروه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابٍ منه**»[١] وهذا الحديث موافق للآية».

فكل واحد منا يحمل جزءًا من تبعة هذا الاستضعاف بحسب ذنوبه وسكوته، وكل واحد منا يستطيع أن يشارك في زوال هذا الاستضعاف بحسب استقامته على أمر الله ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاستطاعة.

والمداراة موافقته بترك حظ نفسه وحق يتعلق بماله وعرضه فيسكت عنه دفعًا للشر ووقوع الضرر».

(١) أبو داود: كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي.

والترمذي: كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ. باب: ما جاء في نُزُول العذاب إذا لم يُغَيَّر المنكر، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ... الحديث، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم (١٩٧٤).

فها هي الطريق يا من تريدون معرفة الطريق.

ها هي الإجابة يا من تسألون: هل إلى خروج من سبيل؟!

فهلا غيَّرنا ما بأنفسنا؟!!



التغيير بالكبار

حتى ترجعوا إلى دينكم

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلىٰ دينكم**»[1].

والعينة: صورة من صور الربا[2]، الربا الذي انتشر بين المسلمين.

وباقي الصفات المذكورة في الحديث تدل على حب الدنيا، وتشير إلى الانشغال بها، وهذا- أيضًا- مما انتشر بين المسلمين.

والجزاء هو ما يعاني منه الجميع: الذل.

والحل هو ما يفر منه الجميع: الرجوع إلى الدين.

---

(١) أبو داود: كتاب الإجارة، باب: في النهي عن العينة.

قال في نصب الراية: كتاب البيوع. باب البيع الفاسد: ولكن للحديث طريق أحسن من هذا، رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا أسود بن عامر ثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر، قال: أتى علينا زمان، وما يرى أحدنا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، ثم أصبح الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم ذلًّا، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**»، انتهى. قال: وهذا حديث صحيح، ورجاله ثقات، انتهى.

(٢) قال أبو عبيد الهروي: العينة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به. (القرطبي ٢/ ٥٩).

وهذا الرجوع لا يكون حميدًا حتى يكون: رجوعًا عن الباطل والخطأ، ودخولًا في الحق والصواب، بالأمرين جميعًا.

وهو ما يسميه العلماء: التخلية والتحلية.

أو: التصوير والتصقيل.

أو: التصفية والتربية.

فلابد من تصفيةٍ لما نحن عليه من الباطل: وهذه تخلية.

وتربية على ما يجب أن نكون عليه من الحق: وهذه تحلية.

وهذا يشتمل كلَّ باطلٍ وكلَّ حقٍّ.

وبحسب نصيبك من التصفية والتربية بحسب نصيبك من الرجوع إلى دينك.

ولابد أن تسبق التخليةُ التحلية.

ولابد من بيان ذلك للناس وإظهاره وتجليته.

فتصبح الأحوال على ذلك ثلاثةً، لا تختلف كتابتها إلا في النقط:

التجلية ثم التخلية ثم التحلية.

وقد يكون هذا الطريقُ في الظاهر طويلًا، لكنه يوصل للمطلوب، ويؤجَر العبدُ على كل خطوةٍ خطاها فيه، وإن لم يصل لمطلوبه.

ولا عليك بالنتائج إن وافقت الصواب والحق.

وإن كنا نحب أن يكون الفتحُ على أيدينا، والنصرُ في جيلنا.

ولكن قم بها عليك: «فإن الله سبحانه لابد أن ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

«فمن كان النصر على يديه كان له سعادة الدنيا والآخرة، وإلا جعل الله النصر على يد غيره، وجازى كل قومٍ بعملهم، وما ربك بظلام للعبيد»[١].

وكيف توقف العمل على ظفرك- بنفسك- بالنتيجة ومن الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، لم يظفر ولا حتى برجل واحد[٢].

وكن كغارس الفسيلة ففي الحديث:

«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[٣].

فهذا مثلٌ لمن يقوم بالعمل «مع علمه بأنه لن يرى له نتيجة».

وأنا أكلمك أن تقوم بما عليك «مع أملك أن ترى له نتيجة».

فلا يمكن لأحد- أبدًا- أن يشترط ختمةً لعمله يحددها هو كما يريد، وقد بشَّر الله- تعالى- نبيه ﷺ بامتلاك خزائن كسرى وقيصر، ولم يحدث ذلك في حياته ﷺ.

فلا تشترط لعملك.

---

(١) من كلام شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٤٣).

(٢) دليل ذلك قول النبي ﷺ: **«عُرضت عليَّ الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فرجوت أن يكون أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك.. الحديث»**.

رواه البخاري: كتاب الطب، باب: من لم يَرْقِ. وهذا لفظه، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أحمد ٣/ ١٩٣، والبخاري في الأدب المفرد، باب: اصطناع المال، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم ١٤٢٤.

ولا تتعجَّل النتائج، فإن تعجلها قد يُودِي بعملك، ويضيِّعه ويمكِّن عدوَّك منك قبل أن يشتدَّ عُودُك.

واصبر على الطاعة والسنة وما صبرك إلا بالله.



التغيير بالصغار أسهل

زوال الاستضعاف - الذي نعيش- لا يكون إلا بتغيير ما بأنفسنا: صغارًا وكبارًا، ذكرانًا وإناثًا، وَالِدينَ ووِلْدَانا.

وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ الآية [الرعد: ١١].

فأما التغيير بالكبار فيكون بالرجوع إلى الدين.

وكما سبق لا يكون هذا الرجوع محمودًا، حتى يكون رجوعًا عن الباطل والخطأ ودخولًا في الحق والصواب.

وذلك بالتصفية عن الباطل والتربية على الحق.

هذا هو طريق التغيير بالكبار!!

وأما طريق تغيير الأحوال بالصغار والأطفال، فأسهل من ذلك. وعليه فيكون أسرَعَ وأجدى وأولى- إن شاء الله.

فإن كنت تحتاج للكبار: تصفية وتربية لتغييرهم.

فأنت تحتاج إلى التربية فقط للصغار: تربيةٍ على الحق من أول الأمر.

ففضْلُ التغيير بالصغار على التغيير بالكبار، كفضل الوقاية على العلاج، وكفضل الدفع على الرفع.

ومعلوم أن من فرط في قليل الوقاية احتاج إلى كثير العلاج.

ومن العجب أن الناس في شئونهم عامة، وفي هذا الأمر- أمر النصر- أيضًا، لا يرفعون للوقاية رأسًا، ولا يلتفتون إليها أصلًا.

وإنما يعيشون على مبدإٍ عجيب غريب هو: «الإدارة بالكوارث».

وحقيقة هذا المبدأ: أنهم يعيشون في راحة تامة حتى عن التفكير، حتى إذا وقعت كارثة هب الجميع وبإخلاص ونخوة لحلها.

وصورة هذا المبدأ في محل كلامنا: أن الناس ينتظرون حتى يكبر الصغار على غير ما يوافق دين الله، وعلى غير ما يَجْلِبُ النصر ثم يقولون: هذا جيل لا يستحق النصر.

ثم ينتظرون الجيل الذي بعده، وقد تربى على نفس الطريقة أو أسوأ، ثم يقولون: هذا جيل لا يستحق النصر.

ونسى الناس أنهم في نفس الوقت الذي يقولون فيه: هذا جيل لا يستحق النصر، هناك جيل آخر صغيرٌ ينمو ويتربى على نفس ما يشتكون منه الآن.

وقد ضربوا لذلك مثالًا: الرجل الذي ينزل عليه المطر في الشتاء، لأن بيته لا سقف له.

فإذا قيل له في ذلك قال: وأنَّى لي أن أضع لبيتي سقفًا بينما المطر ينزل؟!!

فإذا جاء الصيف، وتوقف المطر، فإنه لا يرى ما يدفع إلى وضع السقف، فليس هناك مطر والحمد لله.

ولو أن أعداءنا رَبَّوا أبناءهم على نفس ما تَرَبَّوْا هم عليه، وربينا أبناءنا على نفس ما تربينا عليه: إذن لظل الاستضعاف على نفس ما هو عليه!!

فكيف الحال إذا كان أعداؤنا يربون أولادهم على أفضل مما تربوا هم عليه؟!! إذن لكان الاستضعاف أشدَّ!! والعياذ بالله الكريم.

وكيف الحال إذا كنا نربي أولادنا على أسوإ مما تربينا عليه؟!! إذن لكان الاستضعاف أشدَّ وأشدَّ!! نعوذ بالله من ذلك.

فلم يبق إلا الرابعة وحولَها ندندن!!

وهي أن نربي أولادنا على أفضل مما تربينا عليه.

* * *

وقد ذكر الله تعالى استضعاف بني إسرائيل، ثم إرادة التمكين لهم، ثم صورة التمكين.

ذكر سبحانه الاستضعاف في آيتين ثم إرادة التمكين في التي بعدهما ثم صورة التمكين في التي بعدهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ - هذه صورة الاستضعاف- وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ - هذه إرادة التمكين- وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٤-٧] وهذه صورة التمكين وطريقه.

فطريق التمكين يبدأ من الصغر، فإن فاتنا فلابد أن نستدرك ما نستطيع، في أي وقت وعلى أي حالٍ أفقْنا عليه.

وقريب من ذلك ما حصل لبني إسرائيل بعد دخولهم سيناء، من المعاصي الكبيرة، حتى وصل بهم ضلالهم إلى عبادة عجل بل صورةِ عجل.

ثم نكوصِهم عن نصرة نبي الله موسى- عليه السلام- في تنفيذ أمر الله- تعالى- بالمسير ببني إسرائيل لفتح بيت المقدس.

وقالوا لنبيهم قولًا عظيمًا، قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

فعاقبهم الله- تعالى- بالتوهان في سيناء أربعين سنة، حتى مات كل الجيل

الذي تلبس بهذه المعاصي العظام، والتي استحق بها ألا ينصر، بل ألا يصل إلى أرض المعركة أصلًا[1].

وبزغ جيل جديد لم يتلبس بهذه المعاصي، ونبئ عليهم يوشع بن بنون- عليه السلام- ذلك الفتى الذي كان مع موسى- عليه السلام- في رحلته إلى الخضر- عليه السلام-.

وسار يوشع- عليه السلام- بالجيل الجديد، لتنفيذ أمر الله بفتح بيت المقدس.

وأراد أن يصفِّيَهم إلى أقصى تصفية مستطاعة، يستجلب بذلك معونة الله وتأييده فخطب فيهم فقال:

«لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولما يبنِ بها، ولا أحد بنى بيتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها»[2].

وذلك أن هؤلاء النفر الثلاثة: إما أن يكونوا في أحوالهم هذه منشغلين بالقتال.

وإما أن يكونوا في القتال منشغلين بأحوالهم، ففضل يوشع- عليه السلام- الأولى[3].

---

(١) حتى موسى وهارون- عليهما السلام- ماتا في سنوات التيه وما دخلا بيت المقدس.

حتى إن موسى- عليه السلام- لما علم أنه ميت، دعا الله أن يكون مكان قبضه على بعد رمية بحجر من بيت المقدس.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: من اختار الغزو بعد البناء.

ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) لأن من فرغ من المهمات الطارئة أقبل على المهمات الأصلية.

وأما من أقبل على المهمات الأصلية منشغلًا بالمهمات الطارئة فلا يوفق غالبًا لأيٍّ منهما.

وكانت النتيجة أن يُمَكِّن الله- تعالى- ليوشع- عليه السلام- ومن معه من الجيل الجديد، غاية التمكين.

حتى إنه ليُخَص بتمكين لم يشاركه فيه أحد وهو أنه: وقفت له الشمس.

وقد أخبر بالأمرين الصادق ﷺ فقال: «**إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**»[1].

وسبب ذلك كما جاء مبينًا في الحديث الآخر: «**فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه**».

فانظر إلى أيِّ حدٍّ بلغ التمكين والمعونة!!

وهنا يأتي سؤال كبير في هذا الأمر الخطير:

جيشٌ عليه موسى وهارون- عليهما السلام- لا يُفتح له، بل لا يُسمح له بالذهاب إلى أرض المعركة رأسًا!!

وجيش عليه يوشع بن نون- عليه السلام- يُمكن له بكل هذا التمكين!!

ما السر في هذا الفارق؟!!

ألِأَفضليةٍ في يوشع على موسى وهارون عليهما السلام.

كلا بملء الفم، فإن موسى- عليه السلام- أفضل من يوشع بن نون- عليه

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٥، صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري تحت حديث ٢٤٢٦ وذكر ما ظاهره التعكير على هذا الحصر ثم قال: «.. ووجه الجمع أن الحصر محمول على ما مضى للأنبياء قبل نبينا ﷺ فلم تحبس الشمس إلا ليوشع وليس فيه نفي أنها تحبس بعد ذلك لنبينا ﷺ» وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم ١٤٢٤.

السلام- بلا شك[1].

فما السبب إذن؟!!

لم يتبق إلا مَنْ كانوا مع موسى وهارون- عليهما السلام- ومن كانوا مع يوشع- عليه السلام.

الجيل الثاني يستحق أن ينسب إليه النصر وأن يُمَكَّن.

بعكس الجيل الأول مع كون قائدِه وحاكمِه: نبيين كريمين!!

فيا أيها الذين شغلتم أنفسكم بالحكام!!

يا أيها الذين علقتم كل هزيمة عليهم!!

يا من تجعلون الحكام العائق بينكم وبين نصر الله!!

أسألكم: أتريدون حاكمًا أفضل من موسى- عليه السلام-؟!!

بل لكلٍّ مسئوليته: الحاكم والمحكوم، فوجب ألا يتنصل أي من المسلمين عن مسئوليته، وينخلع عنها لغيره، لينامَ مرتاح البال ويعلل ذلك بأنه قد حِيلَ بينه وبين ما يشتهي، أو أنه قد حبسه العذر عن القيام بها عليه.

كيف؟!!

كيف وهناك ما لا تعذر على تركه؟!!

وهو أكبر باب للنصر، وهو طاعة الله- تعالى- وطاعة رسوله ﷺ، ونبذ المعاصي.

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١١/ ٦٤٤):

«وإذا كان في المسلمين ضعفٌ وكان عدوُّهم مُستظهِرًا عليهم كان ذلك

---

(١) فهو من الرسل بل من أولي العزم من الرسل.

بسبب ذنوبهم وخطاياهم؛ إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما لعُدوانهم بتعدِّي الحدود باطنًا وظاهرًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]».



الذنوب من مؤخرات النصر

«بعض الناس يقول: يا ربِّ إني أخافك وأخاف من لا يخافك، فهذا كلام ساقط لا يجوز؛ بل على العبد أن يخافَ اللـهَ وحدَه، ولا يخاف أحدًا، فإن من لا يخاف الله أذلُّ من أن يُخاف؛ فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه.

وإذا قيل: قد يؤذيني؟ قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له، وإذا أراد الله دفعَ شرِّه عنك دفعه، فالأمر لله؛ وإنما يُسلَّط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شرَّ كل شرٍّ ولم يُسلِّطه عليك فإنه قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه.

فإذا خفتَ الله وتُبت من ذنوبك واستغفرته لم يُسلَّط عليك»[1].

«والذي نصر الأولين ونصر الآخرين سبحانه وتعالى هو الله عز وجل، وهو ناصر من نصره وخاذل من خذله، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّـهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

«ولكن المصيبة في أنفسنا كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فالمصيبة جاءت من ضعف المسلمين وتكاسلهم وجهلهم وإيثارهم العاجلة وحبهم الدنيا وكراهة الموت وتخلفهم عما

---

(١) من كلام شيخ الإسلام مجموع الفتاوى ١/ ٥٨.

أوجب الله وترك الصلوات واتباع الشهوات وإيثار العاجلة والعكوف على المحارم والأغاني الخليعة والفساد للقلوب والأخلاق.. إلخ.

«فمن هذا وأشباهه سلط الله على المسلمين عدوَّهم كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]» (١).

«ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسَه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**». كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلًا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج.

«فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما.

وبينهما عدو ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله، ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوات اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، لأنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز (٥/ ١٠٥).

«فهذه ثلاثة أعداء، أمر العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بلي بمحاربتها في هذه الدار، وسلطت عليه امتحانًا من الله له وابتلاءً، فأعطى الله العبد مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد، وأعطى أعداءه مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا، وبلى أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه، ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّـهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْـمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

«فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وأمرهم مِنْ أمره بما هو أعظم العون لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلطه عليهم، فلتركهم بعض ما أمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يؤيسهم، ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليه ويظفرهم به.

«فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم، لتخطفهم عدوهم، واجتاحهم.

«وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قدره، فإنْ قوي الإيمان، قويت المدافعة، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، فحق جهاده أن

يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا»[1].

«هكذا يجب علينا نحن أن نفعل لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة وذلك بما كسبت أيدينا، وفي البخاري قال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم[2].

«وفيه مسندٌ أن النبي ﷺ قال: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة، قال الله تعالى: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّـهَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿**وَعَلَى اللَّـهِ فَتَوَكَّلُوا**﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾ [الحج: ٤٠] ، وقال: ﴿**إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأنفال: ٤٥]، فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا، بل لم يبق في الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقًا وغربًا

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥.

(٢) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به باب: عمل صالح قبل القتال من كتاب الجهاد من صحيحه.

وبرًّا وبحرًا وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم»[1].

«وقد كان للصحابة ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف الودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب»[2].

هذا حال الصحابة ومع ذلك لما عصى بعض الرماة من الجيش من الصحابة أمْرَ النبي ﷺ لهم بألا ينزلوا عن مراكزهم على أية حال، جاءت الهزيمة ودال عليهم عدوهم، و«لما علم القوم أن العدو يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف.

---

(١) من كلام القرطبي في تفسيره ٣/ ٢٥٥.

(٢) من كلام العلامة ابن كثير في تفسيره ٢/ ٣١٧.

«ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مراكزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء، وتعريفًا لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة»[1].

ولذا لما قالوا: أنى هذا؟ يعني كيف نغلب وفينا رسول الله؟ وفينا الوحي والقرآن؟ ونحن على التوحيد وهم على الكفر والشرك؟ قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالقانون عام ليس يحابي أحدًا ولو كان يحابي أحدًا لكان الصحابة أولَ المحابَيْن وهو أن: «الذنوب أوسع الأبواب لتأخير النصر».

فوجب التباعد عن كل ذنب.

* * *

وأعظم الذنوب أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، فقد سأل عبدُ الله بن مسعود النبيَّ ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟! قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[2].

فراجع نفسك أخي الكريم، فما زال من أقاربي وأقاربك من يتوسل بأصحاب القبور، ومن يَنذِر لهم، ومن يحلف بغير الله، ومن يطوف حول غير الكعبة!!

فكيف ينزل النصر؟!!

---

(١) من كلام شيخ الإسلام ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١٩٦.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾.
ومسلم: كتاب الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب.

وفينا من يتعامل بالربا، ومن لا يصلي، ومن يتعاطى السحر، ويُصَدِّقُ العرافين، ويعقُّ الوالدين.. ومن ومن؟!!

راجع نفسك أخي الكريم، وانظر إلى الطرقات لتعلم حال النساء!! وانظر إلى المساجد لتعلم حال الرجال!!

واستقرئ النصر في أفعال الجميع، فإنك لا تكاد تجده، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

راجع نفسك أخي الكريم، واخرج من كل الأحلام والأوهام عن السعي لإقامة دولة الإسلام، وأنت ما زلت تعاني أشد المعاناة لتغض بصرك أو لتستيقظ لصلاة الفجر.

كيف مع كل هذا ينزل النصر؟!!

كيف والنبي ﷺ يقول: «**فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**»[1].

كيف وقد «ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر؛ عن النبي ﷺ أنه قال: «**بُعثت بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبَّه بقوم فهو منهم**»[2]. وكما أن من

---

(١) البزار ٧/ ٣١٥، حديث: ٢٩١٤ وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٧، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته**».

وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ٢٠٨٥.

(٢) أحمد ٢/ ٥٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ٢٨٣١.

خالفه وشاقَّه وعاداه هو الشقي الهالك، فكذلك من أعرض عنه وعما جاء به، واطمأن إلى غيره ورضي به بدلًا منه هو هالك أيضًا.

فالشقاء والضلال في الإعراض عنه وفي تكذيبه، والهُدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه.

فالأقسام ثلاثة: المؤمن به وهو: المتبِّع له المحب له المقدِّم له على غيره، والمعادي له والمنابذ له، والمعرض عما جاء به.

فالأول هو السعيد والآخران هما الهالكان.

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا من المتبعين له المؤمنين به، وأن يحيينا على سُنته ويتوفانا عليها لا يفرِّق بيننا وبينها إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين»[1].



(١) من كلام شيخ الإسلام مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٤- ١٠٥).

أمة الإسلام متميزة

جعل الله أمة الإسلام متميزة عن غيرها من أهل الملل والنحل، وأمرها بالحفاظ على هذا التميز والتباين الحسي والمعنوي.

وليس أدل على تميزها من قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وليس أدل على الحرص على المحافظة على هذا التميز وصيانته من قول النبي ﷺ لما علم أن اليهود يصومون يوم عاشوراء، وكان عليه الصلاة والسلام يصومه ويأمر بصيامه فقال: **«لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع»**[(١)].

مع أن صيامهم لا يشابه صيامنا!!

ونيتهم لا تشابه نيتنا!!

بل صيامهم - إن صح - منسوخ بشريعته عليه الصلاة والسلام.

ومع ذلك فما زال يطلب التميز وعدم المشابهة، فضم لهذا اليوم العاشر التاسعَ معه طلبًا لذلك.

ولا يخفى عليك أن أشدَّ التميز يكون في حال المفارقة والمخالفة، فكيف بحال النزاع والشجار؟ فكيف بحال الطعان والقتال؟!!

لابد أن التميز في ذلك أشد.

---

(١) مسلم: كتاب الصيام، باب: أي يوم يصام في عاشوراء.

قال النووي: قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر أن لا يتشبه باليهود في إفراد العاشر، وفي الحديث إشارة إلى هذا، وقيل للاحتياط في تحصيل عاشوراء والأول أولى والله أعلم.

ولذا فالمسلمون يختلفون عن أعدائهم في كل ما يخص النصر والتمكين إذ هو قمة المخالفة لهم.

فالعجب من المسلمين: كيف يحكمون على النصر على عدوهم بمقاييس عدوهم؟!!

نحن لنا «أسبابٌ للنصر» تخالف أسباب النصر عندهم!!

ولنا «صور للنصر» تخالف صور النصر عندهم!!

ولنا «أهداف من النصر» تخالف أهدافهم!!

و«حالنا» إذا انتصرنا يخالف حالهم إذا انتصروا والعياذ بالله الكريم.

ولكن آلة الإعلام- بل آلة التجهيل- الغربي اللحوح الخبيثة- التي ما تركت بيتًا إلا دخلته- غيرت- من بين ما غيرت- كل ذلك عند المسلمين.

حتى أصبح كثير منهم ينظرون إلى النصر نظرة أعدائهم إليه.

ولا شك أن لهذا التجهيل بحقائق النصر وقوانينه مساوئ شديدة.

فما ظنك بمن يبحث عمن ضل عنه، وهو لا يعرف له اسمًا ولا رسمًا؟؟!

وأشد مساوئ ذلك أنه يفتح على المسلمين بابًا خفيًّا من سوء الظن بالله الكريم العظيم.

وذلك أنهم حجروا صور النصر في صورة وحيدة وهي الغلبة الظاهرة.

فإذا لم تتحقق هذه الصورة المعهودة في أذهانهم: ضاقوا وملوا وضعفوا وكلوا، وساءت ظنونهم بمن هو عند ظن عبده به[1].

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي...**» الحديث.

=

وإني إن شاء الله- تعالى- ذاكر لك بعض الأمثلة على كل محل من تميز المسلمين في هذه الأمور الأربعة:

الأسباب والصور والأهداف والحال عند النصر لتدل على غيرها من الأمثلة.

والله الموفق.



=

رواه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه.

ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب: الحث على ذكر الله تعالى.

أولاً: أسباب للنصر تخص المسلمين

أسباب النصر كثيرة أكثرها مجموع في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥- ٤٦]. وإنما الذي يعنينا منها ما تميز به المسلمون.

فللنصر أسباب تميز بها المسلمون عن غيرهم.

لأنهم مسلمون، موحدون، على الحق، وغيرهم على الباطل، حباهم الله تعالى- برحمته- بأسباب تخصهم دون غيرهم.

جهلُهم بهذه الأسباب أشد وأشنع من جهل المريض بعلاجه الذي بين يديه وفيه شفاؤه.

ولا شك أن هذا يؤخر نصرهم، إذ كيف يصل لهدفه من لا يعرف طريقه؟! بل من يظن في غير الطريق أنه هو الطريق؟!!

هذا تيه يُذكِّر بتيه بني إسرائيل لما عصوا وعتوا.

❋ ❋ ❋

فمن أسباب النصر التي تخص المسلمين:

السبب الأول: نصر دين الله

وليس ذلك إلا للمسلم(١)

* قال الشيخ عبد العزيز بن باز (مجموع فتاوى ٧/ ١٢):

«فمن أراد نصر الله والسلامة لدينه وأراد حسن العاقبة فليتق الله، وليصبر على طاعة الله، وليحذر محارم الله أينما كان، هذا هو سبب نصر الله له، وهو من أسباب نجاته في الدنيا والآخرة، فالرجل في بيته وفي المسجد وفي الطريق وفي السيارة والطائرة والقطار وفي محل البيع والشراء وفي الجهاد وفي كل مكان، يجب عليه أن يتقي الله وأن ينصر دين الله بقوله وعمله وفي جهاده وفي جميع شئونه، وهكذا المرأة في بيتها وفي كل مكان عليها أن تتقي الله وأن تنصر دين الله بقولها وعملها حسب الطاقة لقول الله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّـهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]».

إنها سنة متكررة لا تتبدل: التمكين يحتاج إلى تمكين!!

والنصر يحتاج إلى نصر !!

التمكين للمسلمين يحتاج إلى تمكين للإيمان في القلب.

ونصر المسلمين يحتاج إلى نصر الإيمان في القلب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) لأن غير المسلم كلما زاد تمسكه بعقيدته، وسخريته من الموحدين، كلما دنا من هزيمته وغلبة أهل الحق عليه.

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٤٠):

«وكل من عرف سير الناس وملوكهم، رأى كل من كان: أنصرَ لدين الإسلام، وأعظم جهادًا لأعدائه، وأقومَ بطاعة الله ورسوله أعظمَ نصرة وطاعة وحرمة.

من عهد أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب ﵁ وإلى الآن».

* قال ابن كثير (تفسيره ٣/ ٣٠٣):

«فالصحابة ﵃ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم: أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييدًا عظيمًا، وحكموا في سائر البلاد والعباد.

ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم».

* وقال (تفسيره ٣/ ٣١٨):

«ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] أي: لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة».

** والأدلة على ذلك منها ما يدل بمنطوقه ومنها ما يدل بمفهومه فمن ذلك:

١ - **قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحج: ٤٠].

* قال الطبري (تفسيره ١٧/ ١٧٨):

«يقول- تعالى ذكره-: وليعينن الله من يقاتل في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوه، فنصرُ اللَّـهِ عبدَه: معونته إياه، ونصرُ العبد ربَّه: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يقول- تعالى ذكره-: إن الله لقوي على نصر من جاهد في سبيله من أهل ولايته وطاعته، عزيز في ملكه».

* وقال ابن كثير (تفسيره ٣/ ٢٢٧):

«وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كقوله- تعالى-: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور».

٢- قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

* قال القرطبي (تفسيره ١٦/ ٢٣٢):

«أي: إن تنصروا دين الله[1] ينصركم على الكفار، نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ ... ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: أي: عند القتال... فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب».

٣- قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْـمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) مما يؤيد أن من نصر العبد لربه: نصر دينه بالطاعة قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْـمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْـمُنكَرِ وَلِلَّـهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وذلك عقيب قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

قال الزجاج: «الذين» في موضع نصب ردًّا على «من» في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ اهـ.

فمن الذين ينصرون الله؟!! الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز- رحمه الله- قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ ...﴾ - إلى آخر الآيتين- هذا هو نصر دين الله، فمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقد نصر دين الله لأن من ضمن ذلك: أداءَ فرائض الله وتركَ محارم الله. اهـ.

[الصف: ١٣].

* قال ابن كثير (تفسيره ٤/ ٣٦٢):

«ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّـهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه: تكفل الله بنصركم».

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فقول الله- تعالى-: ﴿الْـمُؤْمِنِينَ﴾ من بين سائر الصفات إعلامٌ بسبب نصره لهم وهو إيمانهم.

وعليه فكلما زاد نصيبنا من وصف «المؤمنين» كلما زاد نصيبنا من وصف «النصر».

وكلما كان تحصيلك لوصف الإيمان أقوى كان حصولك على وصف النصر أرجى.

* قال الطبري (٢١/ ٥٣):

«﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يقول: فانتقمنا من الذين أجرموا الآثام واكتسبوا السيئات من قومهم ونحن فاعلو ذلك كذلك بمجرمي قومك. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله إذ جاءهم بأسنا وكذلك نفعل بك وبمن آمن بك من قومك. وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين على الكافرين ونحن ناصروك ومن آمن بك على من كفر بك ومظفروك بهم».

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١/ ٣٥٧):

«فالنصر المطلق وهو: خلق ما يَغلبُ به العدوَّ، لا يقدر عليه إلا الله.

وفي هذا القدر كفاية لمن هداه الله. والله أعلم» اهـ.



السبب الثاني: دعاء المولى الجليل

وليس ذلك إلا للمسلم

* قال شيخ الإسلام (الفتاوى ١٤/ ١٤٧):

«الله تعالى إذا قدر أمرًا فإنه يقدر أسبابه، والدعاء من جملة أسبابه.

كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبيُّ ﷺ به قبل وقوعه أصحابه بالنصر ومصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ﷺ ودعاؤه».

* وقال (الفتاوى ١١/ ٤٤٢):

«بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم».

وإن كان الدعاء عبادة من العبادات التي بها يستجلب النصر من الله، إلا أن الدعاء يستحق أن يفرد بالنص على أنه من أسباب النصر التي تميز بها المسلم عن غيره.

**** ومن أوجه هذا الاستحقاق:**

١- أن الدعاء يصفي قلب المحارب لله رب العالمين:

فإن العبد إذا دعا ربه في هذا الحال العصيب، الذي تطير فيه العقول كما تطير الرءوس، وتنخلع فيه القلوب كما تنخلع الأعضاء، ويذهل فيه ذو العقل عن عقله، وذو الحكمة عن حكمتِه، وذو المحبة عن أحبته: أن ينصره الله وأن ينصر

به دينه: صَفَى قلبُه لله السميع القريب، وانقطع عن كل ما يشوب الإخلاص من كدر الرياء والسمعة، وحصَّل قدرًا من الاعتماد على مولاه، والتوكل عليه لا يُحَصَّل إلا بهذا الطريق.

٢- حصول النصر لمن قام بالدعاء ممن سبقونا من الموحدين:

وذلك كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم**[1]...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٠- ٢٥١].

وكما ذكر الله تعالى- أيضًا- في قوله: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ**[1] **اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ**...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

* قال القرطبي (تفسيره ٤/ ٢٣١):

«قوله تعالى: ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ**﴾ أي: أعطاهم، ﴿**ثَوَابَ الدُّنْيَا**﴾ يعني: النصر والظفر على عدوهم، ﴿**وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ**﴾ يعني الجنة».

وكما ذكر الله تعالى- أيضًا- في قوله: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا**[1] **أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ**﴾ [القمر: ٩-١١].

---

(١) وانظر إلى مقام هذه الفاء من معنى الآية حيث إنها فوق إفادتها العطف بلا تراخٍ فهي تفيد أن ما قبلها سبب لحصول ما بعدها.

٣ - أن في حصول الدعاء من القائد تحريضًا لجنده على القتال وتجرئة لهم على النزال:

وذلك كالذي حصل من نبينا ﷺ في غزوة بدر الكبرى فإن الله قد وعده إحدى الطائفتين أنها لهم حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّـهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الْـحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

يعني إما عير قريش وإما الجيش.

* قال المباركفوري (تحفة الأحوذي ٨/ ٣٧٤):

«قال العلماء: هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه».

٤ - حصول الدعاء من قدوتنا -نبينا ﷺ-: فمن ذلك:

*** في غزوة بدر:**

قال تعالى: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْـمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾** [الأنفال: ٩].

* قال الطبري (تفسيره: ٩/ ١٨٩):

«ومعنى قوله: **﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾**: تستجيرون به من عدوكم وتدعونه للنصر عليهم، **﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾** يقول: فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا».

وجاء بيان هذه الاستغاثة في السنة:

ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر

رجلًا، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: **«الله أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»** فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْـمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة[1].

*** وفي غزوة الأحزاب:**

ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال:

دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: **«اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»**[2].

ولما أجمع النبي ﷺ وصحبه الكرام ﭫ أمرهم على حفر الخندق كان النبي ﷺ ينقل التراب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول:

«لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينةً علينا، وثبِّت الأقدام إن لاقينا، إن الأُلَى قد بَغَوْا علينا، وإن أرادوا فتنةً أَبَيْنَا»[3].

*** وفي فتح خيبر:**

عن سلمة بن الأكوع ﭬ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا

---

(١) كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة.
ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسمعنا من هُنيهاتك! وكان عامر رجلًا شاعرًا حداءً فنزل يحدوا بالقوم يقول: اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا وبالصياح عولوا علينا فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع، قال: **«يرحمه الله»**[1].

وانتظر النبي ﷺ حتى الصباح، فخرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميسَ[2]. فرفع النبي ﷺ يده وقال: **«الله أكبر خربت خيبر (ثلاثًا) إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»**[3].

* قال النووي (٩/ ٢١٩):

«وأما قوله ﷺ: «خربت خيبر» فذكروا فيه وجهين: أحدهما: أنه دعاء: أسأل الله خرابها[4]، والثاني: أنه إخبار بخرابها».

*** وفي حنين:**

سأل رجلٌ البراء بن عازب: أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين؟ قال: لا والله،

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.
ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر.

(٢) والخميس: الجيش، سمي بذلك لأنه يتكون من خمسة أقسام: مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقلب.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: التكبير عند الحرب.
ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر.

(٤) ولكونه دعاءً قرينة رفع يده - عليه الصلاة والسلام- فإنه من آداب الدعاء.

ما ولى رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسرًا ليس بسلاح، فأتوا قومًا رماةً، جمع هوازن وبني نصر، ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر، ثم قال: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**». ثم صف أصحابه[1].

بل جاء عن نبينا ﷺ دعاءٌ كان يقوله إذا غزا: «**اللهم أنت عضدي وأنت نصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل**»[2].

❁ قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٢/ ١٥):

«فجماع الأمر: أن الله هو الهادي وهو النصير ﴿**وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾ [الفرقان: ٣١]، وكل علم فلابد له من هداية وكل عمل فلابد له من قوة.

فالواجب أن يكون هو أصل كل هداية وعلم وأصل كل نصرة وقوة. ولا يستهدي العبد إلا إياه ولا يستنصر إلا إياه.

والعبد لما كان مخلوقًا مربوبًا مفطورًا مصنوعًا: عاد في علمه وعمله إلى خالقه وفاطره وربه وصانعه فصار ذلك ترتيبًا مطابقًا للحق وتأليفًا موافقًا للحقيقة.

فإن قيل: ما بال المسلمين يدعون فلا يستجاب لهم؟

قلنا: إن الدعاء سبب مقتضٍ لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب: ما يدعى عند اللقاء، عن أنس بن مالك، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح سنن أبي داود حديث رقم: ٢٢٩١.

حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره. وهكذا سائر الكلمات الطيبات، من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل، تختلف باختلاف قوته وما يعنيها، وقد يعارضها مانع من الموانع، ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر: من هذا الباب.

وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بها قومٌ فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعًا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كافٍ في حصول المطلوب، وكان غالطًا، وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجاب فيظن أن السر في القبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجء إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى.

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا، والساعد ساعدًا قويًّا، والمحل قابلًا والمانع مفقودًا: حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة: لم يحصل الأثر»[١].

---

(١) الداء والدواء: ١/ ١٥.

السبب الثالث: الاستنصار بالضعفاء

وليس ذلك إلا للمسلم[1]

دليل ذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما رأى سعدٌ أن له فضلًا: «**وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»[2].

وليس معنى هذا: الحض على الضعف طلبًا للنصر، أو أن النصر يكون للضعفاءِ.

وإنما معناه: صيانة الضعفاء وعدم إهانتهم، وأن النصر يكون بهم، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله، وإكرام الضعفاء من أسباب النصر، ولا تعارض.

يقول الإمام النووي أثناء شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف...الحديث**»[3] يقول: «المراد بالقوة هنا عزيمة

---

(١) لأن غير المسلم ينظر إلى الضعفاء- على اختلاف صور الضعف- على أنهم حمل زائد على المجتمع بالعقل والحساب، وإن علت بعض أصواتهم- عاطفيًّا- تنادي بالعناية بهم والشفقة عليهم.

وأما المسلم فإنه يرى للضعفاء حقًّا، ليس من جهة الاعتراف بالمعروف ورد الجميل على سابق ما قدموا- مثلًا- وإنما من جهة العقل والحساب - أيضًا- !!

فالمسلم يعتقد - بمقتضى الأدلة- أن الضعفاء سبب خص به المسلمون من أسباب تعجيل النصر وتوسعة الرزق!!

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله.

النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك»[1].

فلا تعارض والحمد لله : فحديث يثبت أجدرية المؤمن القوي بحب الله، وحديث يعظ هذا المؤمن القوي أن يهمل المؤمن الضعيف، أو يكسل عن صيانته ورعايته.

ويعظه- أيضًا- أن يفضل مؤمنًا بعينه على غيره، بل إذا ظن المؤمن بنفسه فضلًا على غيره، عالجها بدواء النبي ﷺ وهو أن يذكِّرها بأن الضعفاء سببٌ لنصر الأقوياء ورزقهم!!

فليس في قول النبي ﷺ :

١- لا أن الضعفاء يَنْصُرون ولا يُنْصرون، وإنما غاية ما فيه أنهم يسببون النصر! فتنبه!!

وهذا حض- بالأسلوب اللطيف- على عدم ازدرائهم.

٢- وليس فيه- أيضًا- أن ضعفهم الموصوفين به هو ضَعْفٌ في إيمانهم بل أثبت لهم مع ضعف الأبدان والأحوال قوة الأقوال والأفعال فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٥).

(٢) النسائي: كتاب الجهاد، باب: الاستنصار بالضعيف عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ٢٣٨٨.

ولذا كان النبي ﷺ يطلبهم يقول: «**ابغوني الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**»[1].

* قال المناوي (فيض القدير ١/ ٨٢):

«بضعفائكم: بسبب كونهم بين أظهركم أو بسبب رعايتكم ذمامهم أو ببركة دعائهم، والضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبرأ عن الحول والقوة بإخلاص، واستعان بالله فكانت له الغلبة و﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ**﴾ بخلاف القوي فإنه يظن أنه إنما يغلبُ الرجالَ بقوته فتعجبه نفسه غالبًا وذلك سبب للخذلان كما أخبر الله تعالى عن بعض من شهد وقعة حنين... فنصرة هذه الأمة إنما هي بضعفائها[2] لا بمدافعة الأجسام».



(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب: في الانتصار برذل الخيل والضعفة. عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني: الصحيحة رقم ٧٧٩.

(٢) وكم من إنسان كان يقوم على أم وزوجة وأولاد، ويعيشون على حالٍ من العيش لا يعرفون له سببًا إلا سعي الوالد حتى جاء اليقين الأمَّ فإذا بالأحوال تتبدل، وإذا بالمفتوح من الأبواب يغلق وبالمغلق من الأبواب يفتح.
وعندها- إن كانوا من الموفَّقين- يعلمون سببًا من أسباب حالهم الأولِ، لم يكونوا يعلمونه بل كانوا يظنون به الظنون.

ثانيًا: صور النصر عند المسلمين

هذا ثاني الأمور التي تميز بها المسلمون- عن سائر الأمم- فيما يخص النصر والتمكين.

فللنصر عند المسلمين صور عديدة، ولكن آلة الإعلام الغربية اللحوح الخبيثة، التي ما تركت بيتًا من بيوت المسلمين إلا دخلته، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم، والتي يتبعها الناس واثقين مستسلمين: غيرت صور النصر عند الناس، وحصرت النصر في الصورة القاصرة له وهي الغلبة الظاهرة والذي يمكن أن نسميه: «انتصار المباني» وهو انتصار المعارك!!

ودليل هذا الانتصار عندهم أن يخرج الغالب ليقول: قد غلبت وانتصرت فلا يعترض عليه أحد، ويقدم على ذلك أدلة منها: عدد القتلى والجرحى والأُسارَى، أو قَدرَ الأرض التي حكموها ونشروا مذاهبهم فيها.

ونسي الناس أو أنستهم هذه الآلة الخبيثة صورًا أخرى من النصر يمكن أن نسميها «انتصار المعاني» وهو الأصل.

وينتظم عقد صور النصر الحقيقية كلَّ ما فيه صلاح الدنيا والآخرة.

ومهما كانت صورته مكروهة لعباد الله لقلة علمهم، فإنها تكون خيرًا ونصرًا إذا دفعت العباد لما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

وأستدل لهذا الضابط بصورة لا يتناطح فيها عنزان:

وهي صورة الرجل يجد أخاه قد جره غضبه إلى ظلم غريب عنهما.

فيأتي هذا الرجل ليحجز أخاه عن ظلم هذا الغريب، ويقف في وجهه ليقول له: اتق الله هذا ظلم!! هذا لا يحل لك!!.

فهل هذا الرجل عندنا يكون قد نصر أخاه أم نصر الغريب؟!!

هذا عندنا قد نصر الغريب، وخذل القريب، وكان ينبغي! ويتوقع منه أن ينصر أخاه، تبعًا للقاعدة الظالمة: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.

ولكن النبي ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا، كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه- أو: تمنعه من الظلم- فإن ذلك نصره**»[1].

ولست أقول هذا لأقول بعده: فقف مع الحق- أخا الإسلام- وإن كان مع الغريب.

إنما قلت هذا لأقول بعده: إن الذي سميناه- بما يشبه الاتفاق- خذلانًا وهو منع الأخ عن ظلم الغريبِ، سماه النبي ﷺ نصرًا.

فوجب على المسلمين أن ينتبهوا إلى أن صور نصر الله لدينه، ليست محصورة في نتيجة معركة معينة، في مكان بعينه، في زمان بعينه.

وإنما للنصر صور أخرى، تظهر لك عندما تخرج من هذه النظرة القاصرة، إلى نظرة أوسع وأرحب لترى ما قبل ذلك وما بعده زمانًا ومكانًا.

فتنجلي لك أمور تظهر فيها حكمة الله الحكيم، وحلم الله الحليم، ولطف الله اللطيف.

❋ ❋ ❋

---

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب: يمين الرجل لصاحبه: إنه أخوه، إذا خاف عليه القتل أو نحوه. عن أنس ابن مالك رضي الله عنه.

ذلك، وفي النصر منتصر ومنهزم، وأخطأ من ظن أن الانهزام لا يكون إلا من الكفار، بل قد يكون من النفس، وقد يكون من الشيطان، وقد يكون من الهوى، وقد يكون من أكثر من واحد مما سبق، وقد يكون من غير ما سبق.

وليس كل صور النصر سواءً، فبعضها أعظم من بعض، وليس كل صور الانهزام سواء، فبعضها أشد من بعض، وذلك بحسب النسبة بين المنتصر والمنهزم، وما يترتب على الانتصار من نتائج.

وعليه فأعظم الانتصار هو الذي يكون للمسلم:

لأننا إذا قلنا انتصار المسلم، فلابد أنه أحق بالنصر لأنه مسلم، ولابد أن نتائجه عظيمة، لأنها تئول إلى ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

فانتصاره على الكفار تمكين لدين الله وإعلاءٌ لكلمته.

وانتصاره على الشيطان أو الهوى أو النفس تمكين لدين الله وإعلاءٌ لكلمته.

وانتصاره في عمل طاعة من الطاعات- بتمكين الله له أن يفعلها- هو تمكين لدين الله وإعلاءٌ لكلمته.

فكل ذلك نصر، فلا تحجر واسعًا!! فالنصر في كل ذلك تمكين لدين الله وإعلاءٌ لكلمته وإن كان بعض النصر أعظم من بعض.

ومعلوم أن من عجز عن الانتصار في حال النصر العظيم، فهو عن الانتصار في حال النصر الأعظم أعجز.

فكيف يُنتظر ممن عجز عن الانتصار على نفسه أو هواه أن ينتصر على عدوٍّ من أعداء الله؟!!

وكيف تأمُلُ فيمن عجز عن القيام بما وجب عليه من الطاعات أن يصبر على النزال والطعان؟!!

بل كل نصر من كل نوع لابد أن يذاق قبل أن يذاق النصر الأكبر!!

بل كل نصر من كل نوع هو الطريق إلى النصر الأكبر!!

بل كل نصر من كل نوع هو بشرى بعد بشرى بالنصر الأكبر!!

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١١/ ١٩٧):

«أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[1] فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان، قال الله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٥] وقال تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٩ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [التوبة: ١٩-٢٠]».

فإذا تدبرت هذين الأمرين اللذين سبق ذكرهما وهما:

١- أن النصر لدين الله ليس محصورًا في: «انتصار المباني» وإنما هناك انتصار قد يكون أنفع وهو: «انتصار المعاني».

٢- أن جهاد الكفار هو أفضل ما تطوع به الإنسان، ولكن لا يستطيعه من انهزم فيما دونه.

---

(١) انظر ضعيف الجامع حديث رقم: ٤٠٨٠، والسلسلة الضعيفة حديث رقم ٢٤٦٠.

إذا تدبرتهما وتأملت حكمة تدبير الله تعالى لأمور عباده: تخليت عن مساوئ كثيرةٍ، أسوأها: سوءُ الظن بالله.

وتحليت بمحاسن كثيرةٍ أحسنها: حسن الظن بالله.

❊ ❊ ❊

وحسن الظن يَمْدُدُ بسببين إلى النصر:

الأول: أن الله تعالى عند ظن عبده به:

كما في الحديث الإلهي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[1].

والثاني: أن بين حسن الظن بالله وبين الثبات اللازم للنصر رابط قوي.

فإن من أحسن الظن أحسن العمل وثبت لأنه يعلم أن الله ناصرٌ دينه.

وأما من شك أو تردد فإنه يسلم رايته أول ما يجد صعوبة أو باردتَها.

قال تعالى: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**﴾ [المائدة: ٥٢].

فما ظنك بثبات من يفتح القفل بمفتاح يعلم يقينًا أنه له، لابد أنه وإن وجد بعض العسر سيظل يحاول ولا يسلم لليأس.

وأما الآخر الذي ليس على يقين أن هذا المفتاح لهذا القفل، فتراه مع أي ثقل يخرجه ليقول: هذا المفتاح ليس لهذا القفل.

واستخرج بنفسك سر ثبات النبي ﷺ في شروط صلح الحديبية من جوابه ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سأله: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٢).

قال: «بلى».

قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال النبي ﷺ: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»[1].

فبَيْنَ حُسنِ الظن وقدر الثبات رابط قوي، وللثبات تأثيره في تحصيل النصر، فعاد الأمر على الأهمية الكبيرة في معرفة «صور النصر» لتحصيل «حسن الظن» وتفادي سوئه.

* * *

وتصور معي بعض الصور على حالين: الحال القاصرة على الحدث لا تنظر لما قبل ذلك وما بعده، ثم انظر- إلى نفس الحدث بالنظرة الأرحب:

١- صورة إبراهيم- عليه السلام- وهو يطرح في النار ثم وهو يخرج منها.

٢- صورة يوسف- عليه السلام- وهو يستخرج من البئر ويباع لرجل من مصر ثم صورته وهو يقال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين.

وهو يقول له إخوته: يا أيها الملك.

ولذا قال الله تعالى بعد ذكر استخراج يوسف عليه السلام وبيعه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] مع أن هذا في نظرنا وحكمنا ليس تمكينًا. ولكنه سيؤدي به إلى التمكين في الأرض والملكِ، ولذا لما وصل إلى هذا التمكين والملك قال الله نفس الكلمات: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، عن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

[يوسف: ٥٦] وما بين الآيتين: صورة التمكين.

٣- صورة أم موسى- عليه السلام- وهي تطرحه في اليم ثم صورته وقد مكن له في بيت فرعون.

ففرعون يقتل كل طفل لبني إسرائيل ليكون بينهم موسى وموسى يربى في بيته بحراسته وسبحان من لا يعلم جنوده إلا هو.

ولذا ذكر الله تعالى طرح أم موسى ولدها في اليم بعد ذكر إرادة التمكين لبني إسرائيل لأنه أول التمكين فقال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٥-٧].

٤- صورة موسى- عليه السلام- وهو واقف ومعه بنو إسرائيل أمام البحر وفرعون وجنوده خلفهم ثم صورته وقد نجا ومن معه وهلك فرعون ومن معه.

ولذا قال عليه السلام كما ذكر الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢].

فقوله: إن معي ربي، هذه المعية هي المعية العامة؟ لا!!

وإنما هي المعية الخاصة معية النصر والتأييد.

٥- صورة النبي ﷺ وهو في غار ثور ثم صورته وقد حل بمهاجره المدينة بين من آمن به ليبني المسجد ويؤاخي بين المهاجرين والأنصار.

ولذا سمى الله حاله مع صاحبه في الغار نصرًا، فقال تعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ**

نَصَرَهُ اللَّـهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا﴾ وهذه المعية- أيضًا- هي المعية الخاصة معية النصر والتأييد.

٦- صورة النبي ﷺ وقد وافق على صلح الحديبية، ذلك الصلح الذي رأى فيه كثير من المسلمين هضمًا للمسلمين حتى يقول عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: ألست نبي الله حقًّا؟

قال: «بلى»

قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: «بلى».

قال: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟[(١)]

ثم صورته وقد فتح مكة نتيجة لشروط الحديبية.

لذا سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحًا وأنزل فيه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١][(٢)].

---

(١) سبق تخريجه ص (٦٥).

(٢) وروى البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. قال: الحديبية. وأحسن منه ما في مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية عن سهل بن حنيف: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله أوَ فتحٌ هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه ورجع.

قال الإمام النووي: قال العلماء: والمصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلها ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي ولا يحلون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية =

٧- صورة غلام الأخدود وأصحاب الأخدود: قُتل الغلام وحرق الأصحاب ثم صورتهم وقد ماتوا على الحق والإيمان.

ولذا سمى الله تعالى ما حصل لهم وحل بهم فوزًا كبيرًا فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١] .

هذه أمثلة تثبت أن صور النصر في الإسلام لا يعلمها إلا الله تعالى ولكن يمكن إجمال صور النصر في أمور أربعة:

١ - الغلبة الظاهرة.

٢ - إهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين.

٣- انتصار عقيدة المؤمن وإن مات هو في سبيلها.

٤ - رفع حجة أهل الحق على أهل الباطل.

١ - فالغلبة الظاهرة كما قال تعالى:

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّـهُ الْـمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

=

اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وذهب المسلمون إلى مكة وحلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فما زلت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهد لهم من الميل، وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّـهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّـهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وكما حصل ليوسف- عليه السلام- من التمكين في الأرض وكما حصل لنبينا ﷺ، فما فارق الدنيا حتى حكم الإسلام جزيرة العرب، وخيَّره الله بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولًا فاختار أن يكون عبدًا رسولًا[1].

٢- وإهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين:

كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكما قال تعالى:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

---

(١) روى الإمام أحمد (٢/ ٢٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك أملكًا أجعلك أم عبدًا رسولًا قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد فقال رسول الله ﷺ: «لا بل عبدًا رسولًا» وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم: ١٠٠٢.

قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٧٨):

«إن نبينا محمدًا ﷺ خُيِّرَ بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولًا فاختار أن يكون عبدًا رسولًا؛ فإن العبد الرسول هو الذي لا يفعل إلا ما أُمر به ففعله كله عبادة لله فهو عبدٌ محضٌ منفِّذٌ أمرَ مُرسلِه كما ثبت عنه في صحيح البخاري أنه قال: «إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا وإنما أنا قاسم أضع حيث أُمرتُ» وهو لم يرد بقوله: «لا أعطي أحدًا ولا أمنع» إفراد الله بذلك قدرًا وكونًا فإن جميع المخلوقين يشاركونه في هذا فلا يعطي أحدٌ ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره؛ وإنما أراد أفراد الله بذلك شرعًا ودينًا. أي: لا أعطي إلا من أُمرت بإعطائه ولا أمنع إلا من أُمرتُ بمنعه فأنا مطيعٌ لله في إعطائي ومَنْعي فهو يقسِّم الصدقةَ والفيءَ والغنائم كما يُقسِّم المواريث بين أهلها؛ لأن الله أمره بهذه القسمة».

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

وكما قال تعالى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

٣- وانتصار عقيدة المؤمن وإن مات هو في سبيلها:

كانتصار أصحاب الأخدود وهذا يفسر لك لماذا كان الغلام يعود إلى الملك في كل مرة ينجو فيها!! ولماذا طلب حشد الناس لحضور قتله.

وعلى هذا يكون الذين صبروا من رماة النبي ﷺ في غزوة أحد ولم يغادروا مواضعهم هم المنتصرون حتى من مات منهم.

٤- ورفع حجة أهل الحق على حجة خصومهم:

كما قال النبي ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»**[1].

فأدنى هذا الظهور للطائفة المنصورة ظهور حجتهم على حجة خصمهم، وقد يكون مع ذلك غلبة ظاهرة وقد لا يكون.

---

(١) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» وهم أهل العلم. عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومسلم: كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق». عن ثوبان رضي الله عنه.

ثالثًا: أهداف النصر عند المسلمين

كما أن المسلمين تميزوا بأسباب النصر وصوره، فكذلك خصوا بأهداف من النصر دون غيرهم تمامًا.

وكما أن المسلم يعلم أن أسباب النصر «**داخلية**»- كم سبق بيانه- فهو يعلم أن أهداف النصر «**خارجية**».

وكما أنه يطلب النصر «بصلاح نفسه» فهو لا يهدف من النصر «مصالح نفسه».

وإنما يريد أن تكون كلمة الله هي العليا، وفي الحديث: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: فهو في سبيل الله**»[1].

لا يريد من النصر أن يصبح سلطانًا ولا ملكًا ولا رئيسًا[2]، وإنما يريد أن تكون كلمة الله هي العليا ولو مات هو، لأن موته في هذا السبيل هو الحياة: حياة الشهداء قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٦].

لا يريد من النصر الانتقام من أعدائه، بل يريد هدايتهم وشرح صدورهم لدين الله الذي لا يقبل من الناس سواه.

المسلم لا يريد من النصر: التمكن من خيرات الناس وإنما يريد نصرة

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) وخير دليل على ذلك اختيار النبي صلى الله عليه وسلم للنبوة دون الملك.

المستضعفين.

ولذا فإن ثمرة النصر لا تظهر إلا على أيدي المؤمنين الصادقين فهم الذين يستحقون أن يمكنوا.

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْـمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْـمُنكَرِ وَلِلَّـهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١].

فهذه الآية تجمل أهداف النصر عند المسلمين:

إقامة دين الله في الأرض (إقامة الصلاة).

إقامة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه (وآتوا الزكاة).

نشر الخير والعلم النافع والأخلاق الطيبة (وأمروا بالمعروف).

القضاء على كل فساد وحرام وظلم (ونهوا عن المنكر).

فأين أهداف غير المسلمين من أهداف المسلمين النبيلة.



رابعًا: حال المسلمين إذا ما انتصروا

المسلم- أيضًا- متميز في حاله- إذا ما انتصر عن غير المسلم.

فالمسلم لأنه يعلم أن النصر إنما هو من عند الله، فإنه إن أنعم الله عليه بالنصر والتمكين، بالغ في التواضع لله، وإظهار مزيد الخضوع له سبحانه، لئلا يترك فرجة لنفسه يبزغ منها الطغيان والتكبر والتجبر وطبع الفراعين.

وأما غير المسلم إذا ما غلب- نعوذ بالله الكريم من ذلك- فإنه يعيث في الأرض فسادًا، ويستحل بلد أعدائه، ويثبت لملكه بالظلم والبطش.

نقل صاحب عون المعبود (١١/ ٢٨٠) عن القرطبي عن التتار بعد دخولهم بغداد:

«وقتلوا جميع من فيها من الملوك والعلماء والفضلاء والعباد، واستباحوا جميع من فيها من المسلمين وعبروا الفلاة إلى حلب، وقتلوا جميع من فيها، وخربوا إلى أن تركوها خالية، ثم أوغلوا إلى أن سلكوا جميع الشام في مدة يسيرة من الأيام، وفلقوا بسيوفهم الرءوس والهام، ودخل رعبهم الديار المصرية، ولم يبق إلا اللحوق بالديار الأخروية».

* وقال الإمام ابن الأثير في الكامل: «حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها».

* وقال الذهبي: «وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها».

ولما قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْـمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا

﴿أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] صدقها الله تعالى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

* قال الطبري (تفسيره ١٠/ ١٥٤):

«يقول تعالى ذكره: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها، إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان، إن أمرتهم بذلك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يقول: خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم؛ وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك، إذا دخلوا قرية عنوة».

نعم هذا حال غير المسلمين.

أما المسلم فإنه يعترف بفضل ربه ويحسن الثناء عليه والشكر له، ليقابل طغيان النفس الذي جبلت عليه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

* قال النووي: «١٦٣- باب ما يقول إذا ظهر المسلمون وغلبوا عدوَّهم.

ينبغي أن يُكثر عند ذلك من شكر الله تعالى، والثناء عليه، والاعتراف بأن ذلك من فضله لا بحولنا وقوتنا، وأن النصرَ من عند الله، وليحذروا من الإعجاب بالكثرة فإنه يُخاف منها التعجيز؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]».

* قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٢/ ٣٢٧):

«والمؤمن إن قدر عدل وأحسن، وإن قُهر وغُلب صبر واحتسب، كما قال كعب ابن زهير في قصيدته التي أنشدها للنبي ﷺ - التي أولها بَانَتْ سُعادُ إلخ-

في صفة المؤمنين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمْ يومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

«وسئل بعض العرب عن شيء من أمر النبي ﷺ فقال: رأيته يَغْلِب فلا يَبْطِر ويُغلَب فلا يَضْجَر. وقد قال تعالى: ﴿**قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّـهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْـمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٠]».

* وقال (مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٧):

«قال حسان بن ثابت في صفة الأنصار:

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

«وقال بعض العرب في صفة النبي ﷺ: يَغلب فلا يَبطر؛ ويُغلَب فلا يَضْجَر، ولما كان الشيطان يدعو الناس عند هذين النوعين إلى تعدي الحدود بقلوبهم وأصواتهم وأيديهم: نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال لما قيل له، وقد بكى لما رأى إبراهيم في النزع: أتبكي؟ فقال: «**إنما نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة: لهو ولعب ومزامير شيطان. وصوت عند مصيبة: لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية**»[1] فجمع بين الصوتين».

ولذا:

١- أمر الله- تعالى- بني إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس، على صفة التواضع وطلب المغفرة من الله، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا**

---

(١) الترمذي: كتاب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت، عن جابر بن عبد الله ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في: السلسلة الصحيحة حديث رقم: ٢١٥٧.

﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

والمقصود أنهم أُمروا أن يدخلوا هذه القرية ركعًا، تواضعًا لله تعالى، حال شعورهم بفرحة النصر على القوم الجبارين، وأن يقولوا أثناء دخولهم على هذه الحال: «حطة» أي حُطَّ عنا ذنوبنا وخطايانا.

هذا أمر الله ولكنهم خالفوا في ذلك كله:

فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة.

٢- لما فتح الله على رسوله ومصطفاه بلده الحرام مكة- كرمها الله- صَاحَبَهُ التواضُعُ لله والخشوعُ له ومخالفةُ عادة الملوك في التكبر والبطش والاستحلال: في حال الفتح كله وامتثل بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٤]

فمن ذلك:

أ- يغتسل من قصعة فيها أثر العجين يوم الفتح العظيم.

ب- يغتسل عليه الصلاة والسلام، وابنته فاطمة ﵂ تستره بثوب.

جـ- يصلي صلاة الشكر لله تعالى ملتحفًا بثوب واحد.

دليل كل ذلك:

أن أم هانئ بنت أبي طالب قالت:

ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: «من هذه؟» .

فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب.

فقال: «مرحبًا بأم هانئ».

فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، علي، أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ» قالت أم هانئ: وذلك ضحى.

وعند النسائي: في قصعة فيها أثر العجين[1].

د- يقرأ سورة الفتح على ناقته عليه الصلاة والسلام فيدخل ذاكرًا لله تاليًا للقرآن ناسبًا هذا الفتح لله تعالى.

دليل ذلك:

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح[2] يرجع[3].

هـ- يجير من أجارتْه امرأةٌ:

دليل ذلك: قوله لأم هانئ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»[4].

---

(١) البخاري: أبواب الجزية والموادعة، باب: أمان النساء وجوارهن.
ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى.
ورواية النسائي في: كتاب الغسل والتيمم، باب : الاغتسال في قصعة فيها أثر العجين، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح سنن النسائي حديث رقم: ٤٨٥.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.
ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح.

(٣) الترجيع ترديد القارئ الحرف من الحلق.

(٤) سبق تخريجه ص قريبًا.

و- يحرم البلد ويحذر من استحلالها:

قال يوم الفتح، فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض. فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي. ولم يحل لي إلا ساعةً من نهار. فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُعضَدُ شوكه، ولا يُنَفَّر صَيْدُه، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَه إلا مَنْ عَرَّفَها. ولا يُخْتَلَى خلاها**» .

فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخِر. فإنه لِقَيْنِهِم ولبيوتِهم.

فقال: «**إلا الإذخِر**»[1].

ز- يُهوِّن على رجل خائف.

دليل ذلك:

عن أبي مسعود قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ فكلمه فجعل تَرْعَدُ فرائصه فقال له: «**هَوِّن عليك، فإني لستُ بملكٍ إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**»[2].

فانظر إلى حاله وهو قدوة المسلمين كيف كان لما انتصر، وتحكَّم في الرقاب فهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم.



---

(١) البخاري: أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم الغادر.

ومسلم: كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها.

(٢) ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب: القديد، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح ابن ماجه حديث رقم: ٣٣١٢، والصحيحة حديث رقم: ١٨٧٦.

والقديد والوشيق: اللحم اليابس. فقه اللغة للثعالبي الفصل الأول (الأشياء اليابسة).

اعقلها وتوكَّل

قال رجل للنبي ﷺ: ناقتي! آعقلها وأتوكل؟ أو أتركها وأتوكل؟!

قال: «**اعقلها وتوكَّل**»[1].

أعلم الله تعالى المؤمنين أنه ناصرٌ دينه، وأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وهذا لا يمنع من الأمر بالقتال وإعداد العدة له.

فإن عِلْمَنا بأن اللهَ ناصرٌ دينَه إنما هو من قبيل: «توكل».

وإعداد العدة وطلب الأسباب هو من قبيل: «اعقلها».

فالتوكل لا ينافي أبدًا تعاطي الأسباب، لأن التوكل فعل القلب وتعاطي الأسباب فعل البدن، وكلٌّ يقوم بما عليه، وكل ذلك من قدر الله.

ولست هنا في مقام حض الناس على طلب الأسباب.

فحال الناس في غاية الشبع في هذا الجانب.

إنما الكلام عن تحقيق التوكل بمعناه الصحيح.

فالمراد بالتوكل على الله، اعتقاد أن النصر من عنده، وليس المراد به ترك التسبب أصلًا.

* يقول الشيخ عبد العزيز بن باز (مجموع فتاوى ٤/ ٤٠٢):

«التوكل يجمع شيئين:

---

(١) الترمذي: أبواب صفة القيامة، باب: ٢٢، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الترمذي حديث رقم: ٢٥١٧.

أحدهما: الاعتماد على الله والإيمان بأنه مسبب الأسباب وأن قدره نافذ وأنه قدر الأمور وأحصاها وكتبها سبحانه وتعالى.

الثاني: تعاطي الأسباب فليس من التوكل تعطيل الأسباب؛ بل التوكل يجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله، ومن عطَّلها فقد خالف الشرع والعقل؛ لأن الله عز وجل أمر بالأسباب وحث عليها سبحانه وأمر رسوله بذلك وفطر العباد على الأخذ بها، فلا يجوز للمؤمن أن يعطل الأسباب بل لا يكون متوكلًا حقيقة إلا بتعاطي الأسباب، ولهذا شرع النكاح للعفة وحصول الولد وأمر بالجماع، فلو قال أحد من الناس: أنا لا أتزوج وأنتظر الولد بدون زواج، لعُدَّ من المجانين، وليس هذا من أمر العقلاء، وكذلك لو جلس في البيت أو في المسجد يتحرى الصدقات لم يكن ذلك مشروعًا ولا توكلًا بل يجب عليه أن يسعى في طلب الرزق ويعمل ويجتهد مع القدرة على ذلك، ومريم رحمة الله عليها لم تدع الأسباب ومن قال ذلك فقد غلط، وقد قال الله لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ الآية [مريم: ٢٥]، وهذا أمر لها بالأسباب وقد هزت النخلة وتعاطت الأسباب، حتى وقع الرطب فليس في سيرتها ترك الأسباب، أما وجود الرزق عندها وكون الله أكرمها به وأتاح لها بعض الأرزاق فلا يدل على أنها معطلة للأسباب؛ بل هي تتعبد وتأخذ بالأسباب، وإذا ساق الله لبعض أوليائه من أهل الإيمان شيئًا من الكرامات فهذا من فضله سبحانه لكن لا يدل على تعطيلهم الأسباب فقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**» وقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فشرع لعباده العبادة له والاستعانة به وكلتاهما من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، والآيات الدالة على ذلك كثيرة».

فحقيقة التوكل أن تقوم بكل ما أمرت به:

ما أمرت به من التسبب.

وما أمرت به من الاعتقاد أن النصر من عند الله لا من التسبب.

ومن وفَّى بالأمرين فهو الموافق لما أمر الله تعالى.

وتعالَ نحسبها:

أنت إنسان مسلم وهذان وصفان:

فبكونك «إنسانًا» تطلب الأسباب ككل الناس مسلمهم وكافرهم.

وبكونك «مسلمًا» تتوكل على رب الأسباب وتعلم أن الأسباب لا تعمل بنفسها.

فكونك «مسلمًا» لم ينسخ كونك «إنسانًا» وإنما هو زيادة على إنسانيتك.

فهما صفتان لزم لهما أمران: الإنسانية كونًا ويلزم لها طلب الأسباب، والإسلامية شرعًا ويلزم لها عدم التوكل عليها بل التوكل على الله.

فإن قلت: فهل لذلك مزية كونية كما أن له مزية شرعية؟

يعني: هل لمن طلب الأسباب وتوكل على الله مزية كونية علاوة على أجره في توكله؟

قلنا: نعم، كما أن المسلم تميز عن غيره بالتوكل على الله سبحانه، فإنه من توكل عليه يُعينه.

وأما الكافر فإنه متروك لسنن الله الكونية فإن جمع أسباب حصول مرادِه كاملة أعطاه الله- بعدلِه- مرادَه.

وأما المؤمن فإنه يعان ممن توكل عليه: فيطلبُ من الأسباب ويُحَصِّلُ من سنن الله الكونية ما استطاع وما قدر عليه، والله يجبر كسره ويسدد سعيه ويبارك له طالما قام بما عليه.

فتنبه لهذا فبه تنحل مشاكل.

**** وهاك مثالين على ذلك:**

الأول: دعاء النبي ﷺ في غزوة بدر[1].

فإن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه منصور، وخرج النبي ﷺ وأرى الصحابة مصارع المشركين.

ومع ذلك أعد للكفار ما استطاع من قوة وتدبير ودعا واجتهد في الدعاء ولا تعارض.

فإن إعداده الجيش ودعاءه من باب: «اعقلها».

وعِلْمُه بأنه منصور من باب: «وتوكل».

ومثال آخر:

مع علمنا بأن الحذرَ لا يمنع من القدر، مع ذلك أُمِرْنا بالحذر:

فقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾ [النساء: ٧١].

* قال القرطبي (تفسيره ٥/ ٢٤٧):

«ليس في الآية دليل على أن الحذر ينفع من القدر شيئًا، ولكنا تعبدنا بألا نلقي بأيدينا إلى التهلكة ومنه حديث: «**اعقلها وتوكَّل**». وإن كان القدر جاريًا على ما قُضي، ويفعل الله ما يشاء».

وإذا قلتَ: ما لك انتقلت من الكلام عن الأسباب إلى الكلام عن القدر؟

قلتُ لك: الباب واحد، فمن فهم باب القضاء والقدر على الصواب توكل

---

(١) سبق الكلام عن دعاء النبي ﷺ في غزوة بدر ص (٥٢).

على الله حق التوكل.

فحَلُّ هذا الأمر في قوله ﷺ لأبي حذافة لما سأله: يا رسول الله أرأيت رقًى نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتقاةً نتقيها هل ترد من قدر الله شيئًا؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «**هي من قدر الله**»[1].

* قال ابن القيم (زاد المعاد ٤/ ١٢):

«فما خرج شيء عن قدره، بل يُرَدُّ قدرُه بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل للخروج عن قدره بوجهٍ ما.

«وهذا كرد قدر: الجوع والعطش والحر بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله: الدافع والمدفوع والدفع».

هذا هو حلها: أن كل ذلك من قدر الله تعالى، فمِنْ قدر الله أن تطلب السبب وتُعطَى النتيجة، ومن قدره أن تكسل عن السبب ولا تُعطَى النتيجة.

فإن فعلتَ فبقدر الله وعلمه، وإن تركت فبقدر الله وعلمه، وإنما ندفع قدر الله المكروه بقدره المحبوب.

ومنه أيضًا ما حصل من أمير المحدثين عمر بن الخطاب ﷺ: خرج إلى الشأم، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمير أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقْدِمَهم على هذا

---

(١) الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا تَرُدُّ الرقى ولا الدواء من قَدَر الله شيئًا، وصححه الشيخ الألباني في: تخريج مشكلة الفقر، حديث رقم: ١١.

الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقدمَهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ فأصبحوا عليه.

قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟

فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبًا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه». قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف[1].

* * *

إلا أن الذي خلق الأسباب وما ينتج عن الأسباب، يجري في كونه ما يشاء ويفعل ما يشاء، كيفما شاء متى شاء، ويقطع الصلة التي خلقها بين السبب والنتيجة.

---

(١) البخاري: كتاب الطب، باب: ما يُذكر في الطاعون.

ومسلم: كتاب السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فمِنَ الناس من ينسى ذلك، لأن الله تعالى خلق الأسباب، وجعل لكل شيء سببًا يطلب به، فاعتاد الناس على طلب الأشياء بأسبابها وأُشربوا ذلك في قلوبهم.

فلربما انزلق بهم هذا الحال إلى «التوكل عليها» من دون الله.

ولربما أراد بعضهم أن يُحكِّموا الأسباب في أفعال الله في غفلة منهم واسترسال مع طلب الأسباب.

والصواب: «أن لله أفعالًا على حسب العادة، وأفعالًا خارجة عن العادة، وقدرته حاكمة على كل سبب، فله أن يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها من بعض»[1].

فالله هو النصير: بسبب وبلا سبب وبعكس السبب وأمره بـ«كُنْ»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ولذا لما أنزل الله ملائكته على المؤمنين في غزوة بدر، لتكون «سببًا» في النصر، علَّم المؤمنين أن النصر ليس من الملائكة، وإنما النصر من عند الله تعالى.

وذلك ليصفى توكلهم عليه- سبحانه- لا على غيره ولا حتى الملائكة. فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَـهُ اللَّـهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

* قال الطبري (تفسيره ٤/ ٨٤):

«يعني تعالى ذكره: وما جعل الله وعده إياكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم إلا بشرى لكم، يعني بشرى يبشركم بها، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ يقول: وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم.

(١) من كلام للمناوي تحت حديث رقم ٢٠١٦ من الجامع الصغير.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ﴾ يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قبل المدد الذي يأتيكم من الملائكة، يقول: فعلى الله فتوكلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإن نصركم إن كان إنما يكون بالله وبعونه ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلى أن يكون ذلك بعون الله وتقويته إياكم على عدوكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى، فاتقوا الله واصبروا على جهاد عدوكم، فإن الله ناصركم عليهم».

* وقال القرطبي (تفسيره ٤/ ١٩٥):

«نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليثق به فهو الناصر بسبب وبغير سبب إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لكن أخبر بذلك ليتمثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولا يقدح ذلك في التوكل».

فتوكل على رب الأرباب وخالق الأسباب فهو الذي بيده مقاليد كل شيء ولا تشغل بأقوال المرجفين، الذين يثبطون المؤمنين ويقولون: ما تظنون أن إيمانكم فاعلٌ بكم؟!!

فإنما قولهم كقول أجدادهم إذ قالوا: (غرَّ هؤلاءِ دينُهم).

فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

* قال الطبري (تفسيره ١٠/ ١٦):

«معناه: ومن يسلم أمره إلى الله، ويثق به ويرضى بقضائه، فإن الله حافظه وناصره، لأنه عزيز لا يغلبه شيء ولا يقهره أحد، فجاره منيع ومن يتوكل عليه يكفه.

«وهذا أمر من الله جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم أن يفوضوا أمرهم إليه ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غير مغلوب فجاره غير مقهور، ﴿حَكِيمٌ﴾ يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حَكِيمٌ لا يدخل تدبيره خلل».



العَدَد والعُدَد

إذا تحدثنا عن التوكل على الله فلا علاقة لحديثنا بالعَدد والعُدد.

فإن إعداد العدة للعدو مما فطرت عليه نفس ابن آدم كونًا لا علاقة لذلك بالإيمان، وإنما يقال للمؤمن- من بين بني آدم-: اعلم أن النصر من عند الله وليس من عند العدد والعُدد.

فمن فهم من هذا الكلام أننا نقول للمؤمن المقاتل: دعك من العدد والعُدد، فهذا فهم مغلوط لا علاقة له بمحل الكلام وليس من لازمه.

فالتسبب محل حصول التوكل، كما أن العمل محل حصول النية.

فالتوكل الحق لا يكون إلا مع التسبب.

والنية الحق لا تكون إلا مع العمل.

وكما أنه لا يقبل قول تارك الصلاة عن شأن نيته، بل يقال له: صلِّ أولًا ثم تكلم عن نيتك من الصلاة؛ لأن النبي ﷺ قال: **«إنما الأعمال بالنيات»**[١] ولم يقل: إنما النيات بالنيات.

فكذلك لا يقبل قول تارك الأسباب في شأن التوكل، وإنما يقال له: خذ بالأسباب ثم تكلم عن توكلك؛ لأن النبي ﷺ قال: **«اعقلها وتوكَّل»**[٢]، ولم يقل: توكل وتوكل.

---

(١) أول حديث للبخاري في كتابه الصحيح.

ومسلم: كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه ص (٧٩).

فالمراد بالتوكل في أمر الرزق اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّـهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وليس المراد به ترك الاسترزاق.

والمراد بالتوكل في أمر النصر اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْـحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وليس المراد ترك الإعداد.

وعلى هذا يحمل كل دليل جاء عن العَدد والعُدد في القرآن أو في السنة.

فكل دليل جاء في تقليل شأن العدد والعُدد فهو محمول على تعظيم أمر التوكل(١).

وكل دليل جاء في تعظيم شأن العدد والعُدد فهو محمول على تعظيم أمر التسبب(٢).

فهما مقامان كل منهما مطلوب:

مقام التسبب ومقام التوكل.

وهذه ثلاث آيات من كتاب الله الكريم أجملت حالات العدد:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

---

(١) وأوضحُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ففيه تعظيم على الغاية لأمر التوكل عليه سبحانه حتى تكاد الأسباب أن تمحق في هذه الآية.

(٢) وأوضحُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَـهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْـخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّـهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ففيه النظر إلى الأسباب ورفع قدرها، ولكن الحكم لا يؤخذ من دليل واحد وإنما بمجموع الأدلة.

وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ [الأنفال: ١٩].

فالقسمة رباعية: فئة كثيرة مؤمنة، وفئة قليلة مؤمنة، وفئة كثيرة كافرة، والرابعة فئة قليلة كافرة.

فأما الآية الأولى فأظهرت حال الفئة الأولى وهي المؤمنة الكثيرة العدد وهو نصر الله لهم، كما آل إليه الأمر في غزوة حنين، إلا إذا حصل منهم ما يخالف ما هم عليه من إيمان بالله، فقد يؤخر الله عنهم النصر لتقصيرهم في حقه ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

والآية الثانية: تبين حال فئة مؤمنة قليلة العدد وهو نصر الله لها مع قلة عددها.

والآية الثالثة: تبين حال فئة كافرة كثيرة العدد وهو خذلان الله لهم ونصر المؤمنين عليهم وعدم إغناء الكثرة عنهم.

ويدخل في هذه الآية- أيضًا- حال الفئة الرابعة وهي القليلة الكافرة من باب الأولى.

فاجتمعت كل الحالات في هذه الآيات.

فالحديث عن التفوق العَددي والعُددي وعن تقدم العدو في الأسلحة الفتاكة الذكية منها والغبية كل هذا مقبول في حال التساوي في عدم الإيمان وأما إذا كانت طائفة منهما مؤمنة فالأمور والأحوال تتغير تمامًا، إذ القانون عند ذلك:

---

(١) ويصلح لنفس هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي: قليل عددكم.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَـهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] فكن - إذن - من جند الله وخذ النتيجة.

* قال القرطبي (تفسيره ٤/ ٢١٨):

«﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قيل: هذا في الحرب تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحص ذنوبهم، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون».

وهذا ما كان من هدي نبينا ﷺ وأكمله وانتهجه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم وكانوا في أكثر معاركهم وفتوحاتهم أقل بكثير من عدوهم.

فما انتصروا إذ انتصروا من كثرة وما انهزموا إذ انهزموا من قلة.

بدءًا من بدر الكبرى التي كان عدد المسلمين فيها ثلاثمائة أمام ألف من المشركين وهزموهم بإذن الله.

إلى القادسية التي كان عدد المسلمين فيها سبعة آلاف يحاربون ستين ألفًا من الفرس وهزموهم بإذن الله.

* قال ابن كثير (تفسيره ١/ ٤٠١) عن يوم بدر:

«وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا فيهم فارسان وسبعون بعيرًا والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد.

«فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله وبيض وجه النبي وقبيله وأخزى الشيطانَ وجيلَه ولهذا قال تعالى ممتنًّا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي: قليل عددكم لتعلموا أن النصر

إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا- إلى- غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٧].

«وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك قال: سمعت عياضًا الأشعري قال: شهدت يوم اليرموك وعلينا خمسة أمراء أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد وعياض وليس عياض هذا الذي حدث سماكًا قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة قال: فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه.

فكتب إلينا أنه قد جاءني كتابكم تستمدونني وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا وأحصن جندًا: الله عز وجل فاستنصروه فإن محمدًا ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ قال: وأصبنا أموالًا فتشاورنا فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة».



وما يعلم جنود ربك إلا هو

إذا أراد الله- تعالى- شيئًا هيأ له أسبابه، ليعلم الناس أن سنة الله في الأسباب جارية، وليس هناك شيء بلا سبب، ليأخذوا بالأسباب مع توكلهم على ربهم ربها.

ثم قد تكون هذه الأسباب في نفسها عجيبة غريبة عن إلف الناس وما يعتادون ويكون هذا أبلغ في الدلالة على مكانة الأسباب.

فماذا تفعل من جاءها المخاض، في نخلة تهز بجزعها ليتساقط عليها من رطبها لتأكل منه؟!! وإنما هو تعليم الأخذ بالأسباب.

فهذا الكون يدور بقدر الله بتدبير بديع وحكمة محكمة، ومن تأمل بعض ذلك عظم عنده التوكل وهانت عليه الأسباب، وعلم طرفًا من مقصود يوسف- عليه السلام- لما قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

يقول ابن القيم بعد أن ذكر هذه الآية: «فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

«فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقًا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنًا ومصائب، وباطنها نعمًا وفتحا جعلها الله سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة.

«ومن هذا الباب: ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره،

وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وقد قال ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا خيرًا له، إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**».

«فالقضاء كله خير لمن أعطى الشكر والصبر جالبًا ما جلب، وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

«فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سببًا أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببًا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه، فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الفارين منه وكان ذلك عين نصرهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون.

«وهذا كله مما بين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته، فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها، وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب.

«وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها.

وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله ويحصر اللسان عن التعبير عنه، وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته[1].

فإذا أراد الله نصر دينه هيأ لذلك أسبابًا، وجعل لذلك جنودًا لا يحيط بعلم ذلك إلا هو سبحانه.

وليس لهذه الأسباب وتلك الجنود حصر لدينا!!

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وعدم حصرها يبعث على الأمل، وحسنِ الظن دائمًا.

طالمًا أنك واثق من نصر الله لك، فقد يأتي النصر من أي سبيل، وقد يتحول أي شيء إلى سبب من أسباب النصر، ولو كان هو الآن عدوًّا يظاهر على المؤمنين.

وقد يبزغ سبب النصر عند إرادة الله النصر ولا يكون له وجود قبل ذلك.

وقد ينصر الله المؤمنين بغير قتال أصلًا كما حصل في الخندق قال تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وجنود الله لا يغلبون أبدًا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

فالله تعالى ينصر دينه بالمؤمنين وينصر المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

❁ وقد ينصر الله دينه بغير المؤمنين به وبأعداء دينه:

ففي الحديث: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وفي رواية: «بأقوام لا

(١) شفاء العليل ص(٨٠) فصل ويشبه هذا قول يوسف عليه السلام.

خلاق لهم»[1].

وقال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

❁ وقد ينصر الله دينه بالملائكة كما حصل في بدر والأحزاب وحنين:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْـمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْـمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

❁ وقد ينصر دينه بالريح كما في غزوة الخندق:

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾ [الأحزاب: ٩].

❁ وقد ينصر دينه بالمطر كما في غزوة :

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

❁ وقد ينصر دينه بالرعب:

وفي الحديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[2].

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه عن أبي هريرة ﷺ.

وبلفظ: «بأقوام لا خلاق لهم» أخرجه النسائي من حديث أنس. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء كتاب العلم: الباب الرابع: بإسناد صحيح، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ١٨٦٦.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

=

❁ وقد ينصر دينه بالماء كما حصل مع نوح- عليه السلام-:

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْـمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠- ١٢].

❁ وقد يكون النصر بالمصالحة كما في صلح الحديبية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّـهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّـهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١- ٣].

فهذه من جنود الله وما يعلم جنود الله إلا الله.

❁ ❁ ❁

ثم إن هذه الجنود إنما هي أسباب ليس النصر منها وإنما النصر من عند الله خالِقها ومسبِّبها.

❁ قال القرطبي (تفسيره ٧/ ٣٧١):

«﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْـمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّـهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠]

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ﴾ نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من

=

ومسلم: في أوائل المساجد ومواضع الصلاة.

قال ابن حجر: وإنما جعل الغاية شهرًا لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه، وهذه الخصوصية حاصلة على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه احتمال.

الملائكة؛ أي: لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة، والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة».

* قال الزمخشري تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: ٢٨]:

«فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

«قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمدًا ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلًا عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدًا؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودًا من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك»[1].



(١) نقلًا من القرطبي ١٥/ ٢١.

تأخير النصر

ليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة

يقول شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١١/ ٤٤٢- ٤٤٣):

«وقد يكون للرزق والنصر أسبابٌ أخر؛ فإن الفجار والكفار أيضًا يرزقون وينصرون؛ وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب، وقد يُملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل إنعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]».

الله- عز وجل- حكيم وقدره يجري على وفق حكمته وقد يكون من قدره ما يكره العبدُ وفيه صلاح حاله.

وقد يكون من قدره منع محبوب للعبد فيه فساد حاله.

والعبد بنظره القاصر قد يطلب ويُلحُّ نيل ما فيه هلاكه وهو لا يعمل ولكن الله يعمل وقد يكون من العبد عكس ذلك.

وغاية حكمة الحكيم منا وعِلْمِ العليم منا أن يعلم ما يريد، أما أن يعلم ما يفيد فهذا لا يعلمه إلا من هو فعال لما يريد.

وقد تظهر بعضُ حِكَمِ أحكام الله لبعض الموفَّقين، وقد تظهر بعض الحكم

بعد حين.

ولكن المسلم يرضى ويسلم على كل حال، لإيمانه بالقدر خيره وشره حلوه ومره، ولا يحتاج إلى أن تنكشف له أسرار حكم الله.

بل لا يلزم ذلك أصلًا!!

بل لا يمكن ذلك أصلًا!!

فإن عقلَ الإنسان أضعفُ من أن يتحمل ذلك، وعلمَه أقلُّ من أن يدرك ذلك.

والآية من كتاب الله تصرخ به: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

نعم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فعلم الله قد أحاط بكل شيء، وعلم الإنسان عجز عن كل شيء، حتى عن معرفة أمسه فكيف بيومه؟!! فكيف بغده؟!!

ثم إنْ علم العبد شيئًا من ذلك، جاءه عجزه الثاني فمنعه من أن تظهر له حكم الله من أحكامه ومقاديره.

وكل ذلك لا يلزمه، وإنما يكفيه علمه العام ويقينه الكامل أن الله حكيم يجري قدره على وفق حكمته.

وانظر إلى موسى - عليه السلام - مع الخضر - عليه السلام -:

كيف ظهرت أفعال الخضر لموسى - عليهما السلام - وكذلك تظهر لكل منصف على أنها أفعال لا تجري على العدل والصواب.

ولكن لما انكشفت لموسى - عليه السلام - أسباب ذلك الخفية، والتي لم يُطلع ربنا سبحانه موسى - عليه السلام - عليها وأطلع عليها الخضر - عليه السلام -

رضي بذلك وسلم، وذلك لأن الخضر كان يعمل على «الغيب» وموسى يعمل على «الشهادة».

فهل يقول مسلم: لا أرضى ولا أسلم حتى ينكشف الغيب لي لأعلم ماذا أُخْفِيَ لي؟!! لا بملء الفم.

فإذا تأخر النصر عن المسلمين وجب أن يحسنوا الظن بربهم ويتهموا أنفسهم ويتوجهوا إليها بالملام.

يحسنوا الظن بربهم أن لتأخيره- سبحانه- النصر فوائدَ.

فالله سبحانه قادر على أن ينصر هذه الأمة بأمر: (كُن)، وأن كل من أرادها بسوء أن يقصمه.

ولكن لتأخير النصر فوائد قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّـهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وانظر كيف منع الله الكفار عن عاصم أن يأخذوه وهو ميت ولم يمنعه منهم وهو حي؟!!

ولكن الله أراد له منزلة لا ينالها إلا بالشهادة(١).

---

(١) قصة عاصم بن ثابت رواها البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر: أن أبا هريرة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة، وهو بين عسفان ومكة، ذُكروا لحي من هذيل، يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل كلهم رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدًا. قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل =

وأوضح مثال لتأخير النصر عن المسلمين غزوة أحد وقد أطال العلامة المحقق المدقق شيخ الإسلام والمسلمين الإمام ابن القيم النفسَ في كلامٍ له قيمٍ عن الفوائد المتحصلة من هزيمة أحد وتأخير النصر فيها عن المسلمين فيقول رحمه الله رحمة واسعة (زاد المعاد ٣/ ١٩٦):

«فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد

وقد أشار الله- سبحانه وتعالى- إلى أمهاتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْـمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّـهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك

فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأسوة، يريد القتلى، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، .....، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حيث حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسولهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئًا.

أشد حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله، وأتباعهم، جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا، دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة(١).

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا، لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر، لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

---

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام. عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة، والكسرة، والهزيمة، ذلوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، فهو- سبحانه- إذا أراد أن يعز عبده، ويجبره، وينصره، كسره أولًا، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه- سبحانه- هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله- سبحانه- إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم

الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

«ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولًا بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها، ورجاءها خالص للذين آمنوا.

«ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

«ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء

من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة.

«ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محق الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم، وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه. فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، أي: ولما يقع ذلك منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه».

* وقال شيخ الإسلام عن وقعة حصلت في زمانه (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٢٤):

«فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام.

فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم- الذي هو على الحال المذكورة- لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمةً ونعمة وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين».

** ثم قد يكون من فوائد تأخير النصر:

١ - أن الأمة لم توفر بعدُ مَن يقوم بهذا النصر فقد يأتي النصر الذي يطلبه المسلمون فلا يجد من المسلمين إلا كما وجد طالوت من الجنود.

فيضيع النصر وثمرة النصر.

فإذا تأخر النصر وجد في المسلمين مع التمحيص والاختبار والابتلاء من يقوم بهذا النصر ويظهر ثمرته.

٢ - ومنها: أن حصول الظفر سهلًا هينًا يجعل ضياعه كذلك سهلًا هينًا، فإذا تأخر حتى بذلت فيه كل نفيسة، عز على المسلمين أن يفرطوا فيه.

٣ - ومنها: أنه قد يكون ممن يحارب بين المسلمين من يحارب لعرض أو غرض فإذا ضاقت الأمور وتعسر المأمول انصرف كل صاحب غرض إلى حاله ولا يبقى إلا من يجاهد مخلصًا محضًا أو من هو أقرب ما يكون إلى ذلك.

٤ - ومنها: أن الباطل الذي يحاربه المسلمون ما زال له أعوان يخادعهم ويستجدي عونهم فإذا انتصر المسلمون عليه والحال كما ذكرنا وجد الباطل له أعوانًا، وإذا تأخر النصر حتى ينكشف زيف الباطل وخداعه ذهب الباطل لا يأسف عليه أحد.



الله مولانا

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ أناسًا من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: **«لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم»** قال: فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يشتددن في الجبل، وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال لهم عبد الله: أمهلوا! أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلًا، ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو في نشز فقال: أفي القوم محمد؟

فقال رسول الله ﷺ: **«لا تجيبوه»** حتى قالها ثلاثًا. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثًا.

فقال النبي ﷺ: **«لا تجيبوه»** ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاثًا.

فقال النبي ﷺ: **«لا تجيبوه»** ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا.

فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه دون أن قال: كذبت يا عدو الله! قد أبقى الله لك من يخزيك به.

فقال: اعْلُ هُبَل؛ مرتين. فقال النبي ﷺ: **«أجيبوه»** فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجل»**.

قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**».

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني[1].

مهما يفخر الكفار بشيء يبق الفخر كله للمسلمين!!

ومهما يستنصر أعداء الله بشيء يبق النصر الحق للمسلمين!!

وإن ملكوا ما ملكوا، وإن صالوا ما صالوا، فليس الله مولاهم!!

أما عباد الله المؤمنون فالله مولاهم، قال تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّـهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

الله مولانا ولينا قال تعالى:

﴿اللَّـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الله ولي الذين آمنوا: يدلهم على طريق النصر بعد أن أمرهم بقتال أعدائه، فإذا جاهدوا في سبيله نصرهم وأيدهم بجنوده، وإن أخر عنهم النصر فلأجلهم فعل.

يقبل شهيدهم ويثيبه ويحييه في جوف طير خضر، ويجبر كسرهم، ويسد خللهم، ويرحم ضعفهم، ويبارك في سعيهم، ويثبتهم ولا يؤاخذهم بكل تقصير منهم.

وأما الذين كفروا فلا مولى لهم ولا ناصر لهم.

---

(١) كتاب المغازي، باب: غزوة أحد.

ومن عادى أولياء الله فإنه يعادي الله، والله عز وجل يحاربه.

قال الله تعالى في الحديث الرباني: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[1].

فلم يبق إلا أن نكون أولياء لله!

ومن هم أولياء الله؟!!

قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣].

بالإيمان والتقوى يؤاذن الله عدوك بالحرب.

فنحن نقتُل ولكن الله تعالى هو الذي يقتلهم حقيقة!!

ونرمِي ولكن الله هو الذي يرمي حقيقة!! لأنه مولانا ولا مولى لهم.

فهل يجوز لمن علم هذا أن يظن أن الله يتركه لعدوه؟!!

الذي يمرر هذا الظن لا يستحق أن يُنصر، لأنه من الظن السيئ بالله تعالى.

* قال ابن القيم (٣/ ١٩٦):

«وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية، والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه

---

(١) سبق تخريجه.

يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلا خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها».

والله مولانا، يعذب أعداءه بأيدينا.

قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا**﴾ [التوبة: ٥٢].

وما من شيء إلا وهو يسبح بحمد الله، والله مولانا.

قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأسلحتنا وأسلحة عدونا شيء فهي تسبح بحمد مولانا.

وأسلحتنا وأسلحة عدونا شيء فهي من خلق مولانا.

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر: ٦٢].

فمن كان الله مولاه وهو من أولياء الله، كيف يخاف من أولياء الشيطان؟!!

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

❁ قال ابن كثير (تفسيره ١/ ٤٣٢):

«قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجئوا إليّ فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّـهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]».

فوجب أن نعمل على وفق اعتقادنا بأن الله مولانا.

فلا نخافهم ولا نطيعهم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّـهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩- ١٥٠].

ولا نستنصر بهم من دون الله قال الله تعالى:

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١].

ولا نسارع فيهم فهذا من علامات المرض قال تعالى:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

وصدق من قال:

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت.



قوانين النصر

للنصر قوانين من نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ علمها إن شاء الله.

فالأمور ليست هكذا عشوائية وإنما هي سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتغير.

وتفسير ما يدور حولنا سهل لمن علم ذلك، وأما العامة الدهماء الجهلاء فلأن جهلهم حجبهم عن فهم ما يدور حولهم فإنهم يقولون قولة حق لا يفهمون منها- القائل والمستمع- إلا باطلًا في باطل فيقولون: أقام العباد فيما أراد وله المراد فيما يريد!! يقصدون بذلك أن تفسير ما يدور صعب، وليس له قانون، وإنما هي حظوظ ليس لها أسباب وليس لنتائجها مقدمات.

وليس هذا صحيحًا، مع إيماننا أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، ولا حقيرة ولا جليلة تقع في كون الله إلا والله:

علمها قبل أن تكون و:

كتبها قبل أن تكون و:

شاءها من أجل أن تكون و:

خلقها من أجل أن تكون.

ولكن لأن الله مولانا، فقد أعلمنا بقوانين النصر، هذه القَوانين التي لا يأخذهاه عن الله إلا الأنبياء وعنهم ورثتهم ليبثُّوها إلى عامة الناس.

فقوانين النصر موجودة بأدلتها، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، ولا يلومن تارك لعلمها إلا نفسه.

** فمن هذه القوانين:

١- النصر من عند الله:

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وتحت هذا القانون قوانين منها:

أ- أمر النصر إلى الله ليس إلى غيره.

دليل هذا القانون قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤](١).

ب- نصر الله سنة سبقت لأهل الحق:

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٢- النصر لمن نصر الله:

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

---

(١) قال القرطبي (تفسيره ٢/ ٨٩):

قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ يعنون النصر ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني النصر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وتحت هذا القانون قوانين منها:

أ- نصر المؤمنين حق على الله أحقه سبحانه على نفسه.

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧](١).

ب- لا يرسل الله جنوده إلا للمؤمنين:

ودليل هذا القانون قوله تعالى في الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٠٢- ٢٠٣): فامتنع - حينئذ- أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه - سبحانه- حق، بل هو الذي أحق الحق على نفسه بكلماته فهو المحسن بالإحسان وإحقاقه وكتابته على نفسه.

فهو في كتابته الرحمة على نفسه وإحقاقه نصر عباده المؤمنين ونحو ذلك محسن إحسانًا مع إحسان.

جـ- الذنوب أعظم مؤخرات النصر:

ودليل هذا القانون قوله ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[1].

٣- من نصره الله فلا غالب له، ومن خذله فلا ناصر له:

ودليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّـهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّـهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ [الحج: ١٥].

٤- الناصر الله وحده:

ودليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٠٧].

٥- الكثرة لا تغني من الله شيئًا:

ودليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ البقرة: ٢٤٩].

---

(١) سبق تخريجه (٣٩).

وتحت هذا القانون قوانين منها:

أ- النصر من عند الله لا من الأسباب:

ودليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْـمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَـهُ اللَّـهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْـحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٥- ١٢٦].

ب- إخلاص المجاهد أن يعتقد أن النصر من الله ليس منه.

٦- ليس كل منصور منتصرًا:

فليس كل منصور من غيره فهو منتصر في نفسه، فرب منصور من غيره جره ناصره إلى هزيمته.

ودليل هذا القانون قوله تعالى:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

٧- المسلمون يخالفون غيرهم في أمر النصر:

* يخالفون غيرهم في أسباب النصر:

دليل ذلك قوله ﷺ: «**وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»(١).

* ويخالفون غيرهم في صور النصر:

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّـهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ

---

(١) سبق تخريجه.

عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

* ويخالفون غيرهم في أهداف النصر:

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١].

* ويخالفون غيرهم في حالهم إذا ما انتصروا:

ودليل ذلك حال النبي ﷺ في فتح مكة[1].

٨- قد يؤخر الله- تعالى- النصر لحكم منها: الابتلاء والتمحيص ومحق الكافرين:

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٩- الحق الجمع بين التوكل والأسباب ليحصل النصر:

دليل هذا القانون قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ

---

(١) سبق الكلام على حاله ﷺ عند فتح مكة ص (٧٦).

عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

۞ قال ابن القيم (زاد المعاد ٣/ ٢١٣):

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ إعلامًا لهم بعموم قدرته بعد عدله وأنه عادل قادر وفي ذلك إثبات القدر والسبب، فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه فالأول ينفي الجبروالثاني ينفي القول بإبطال القدر.



مبشرات النصر

مع شدة الضغطة على أهل الحق، ومع شيء من الدخل في نسبة أهل الحق إلى هذا الحق، قد يتسرب بين المسلمين شعور بأن الشر في زيادة وأن الخير في ضعف وإدبار، وينتج هذا الزعم من اليأس ما ينتج.

ولكن البشريات إذا جاءت في هذا الحين محت كثيرًا من هذا الأثر، ورفعت الهمم بعد أن تدنت، وأيقظتها من بعد سبات.

ومعلوم أن المقاتل إنما يقاتل طالما وجد الأمل في الانتصار، فإذا ذاب هذا الأمل، ذابت معه عزيمته وخارت.

بل قد يصل بهم ضعف يقينهم بنصر الله إلى المسارعة في أهل الكفر خشية بطشهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

ومعلوم أن أشد ساعات الليل ظلمة أقربها من الفجر.

إذا تم أمر بدا نقصه ... توقع زوالًا إذا قيل تم

وكلما زاد أهل الباطل في باطلهم، وزاد ازدراؤهم لأهل التوحيد والسنة، كلما اقتربوا من زوالهم وخراب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

والمسلمون الآن أحوج ما يكونون إلى أن يذكروا بمبشرات النصر، ففي ذكرها لهم دواء لكثير من أمراض قلوبهم.

وذكر المبشرات في حالات الشدة سنة نبينا ﷺ كما قال خباب بن الأرت: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض،

فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

فنقلهم النبي ﷺ من أسوإ ما جرى لمن قبلهم من الخوف إلى أحسن ما يجدون هم من الأمن لتكون البشرى في أحسن صورها وأوضح أحوالها.

❊ ❊ ❊

ومع هذه السنة (ذكر المبشرات عند الأزمات) نذكر شيئًا مما جاء في الكتاب والسنة من المبشرات:

فمن ذلك:

١- قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [التوبة: ٣٣].

٢- قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [الفتح: ٢٨].

٣- قوله تعالى: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** [الصف: ٨].

٤- قوله تعالى: **﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** [التوبة: ٣٢].

٥- قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**

---

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٨- قوله ﷺ: «إن الله زَوَى لي الأرض. فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها. وإن مُلك أمتي سيبلُغ ما زُوي لي منها. وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنَة عامة. وأن لا يُسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم. فيستبيح بيضتَهم. وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد. وإني أعطيتك لأمتك أن لا أُهلكهم بسنة عامة. وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضَتَهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها- أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[١].

٩- قوله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب»[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أحمد ٥/ ١٣٤ عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم: ٢٣.

١٠- قوله ﷺ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[١].

١١- قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، وحتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[٢].

١٢- قوله ﷺ: «الإسلام يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه»[٣].

١٣- قوله ﷺ: «إن الله استقبل بي الشام وولى ظهري اليمن وقال لي: يا محمد إني جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا وما خلف ظهرك مددًا ولا يزال الإسلام يزيد وينقص الشرك وأهله حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورًا والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم»[٤].

١٤- قوله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا، فيكون ما شاء الله أن يكون،

---

(١) سبق تخريجه ص (٧٠).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: قتال اليهود.

ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت، من البلاء، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الدارقطني: وعلقه البخاري في صحيحه موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما وحسن إسناده مرفوعًا من حديث عائذ بن عمرو المزني الحافظُ ابن حجر انظر لذلك: البخاري: كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وشرح ابن حجر عليه، وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ٢٧٧٨.

(٤) الطبراني: وصححه الشيخ الألباني في: صحيح الجامع حديث رقم: ١٧١٦.

ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكًا جبرية عاضًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» ثم سكت[1].

ولأن ذكر المبشرات عند الأزمات من هدي سيد السادات ﷺ لذا كان علماؤنا وما زالوا- بحمد الله، رحم الله من مات وثبت الأحياء منهم وبارك في علم الجميع- هم عناصر التثبيت[2] في مثل هذه الأوقات، لعلمهم بقوانين النصر، ومبشرات النصر، وصور النصر.

وهذا مثال لقطب من أقطاب التثبيت في هذه الأمة: الإمام أحمد بن حنبل الذي كان مفتاحًا لخير كبير مغلاقًا لشر عريض.

---

(١) أحمد ٤/ ٢٧٣ عن النعمان بن بشير عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في: السلسلة الصحيحة حديث رقم: ٥.

(٢) فائدة في: من هم: العلماء الربانيون: قال الطبري (تفسيره ٣/ ٣٢٧):

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنهم جمع رباني، وأن الرباني المنسوب إلى الربان: الذي يرب الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربها، ويقوم بها، ... فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، وكان الربان ما ذكرنا، والرباني: هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يرب أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والولي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دينهم ودنياهم؛ كانوا جميعًا مستحقين أنهم ممن دخل في قوله عز وجل: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ فالربانيون إذًا، هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار» لأن الأحبار هم العلماء، والرباني: الجامع إلى العلم والفقه، البصر بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

قال علي بن المديني- رحمه الله-: أعز الله الدين بالصديق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة.

وعلى منواله نسخ شيخ المسلمين ابن تيمية- رحمه الله-.

* يقول ابن القيم عن شيخ ابن تيمية- رحمهما الله وعمهما برضاه-:

«وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[١].



---

(١) قاله تحت الفائدة الرابعة والثلاثين من فوائد الذكر من: الوابل الصيب ص (٦٧).

خاتمة الكتاب وفيها خلاصته

والخلاصة أن «**تسهيل النصر**» يكون بالدلالة على الطريق الموصل إليه وإن كان طويلًا.

ولأن «**الحق عالٍ والباطل في سفل**» وهذه الصورة لا تتبدل فلابد من خلل في نسبتنا إلى الحق، ولهذا نزلنا عن أهل الباطل لعيبٍ فينا وليس لمزيةٍ فيهم.

فإذا اعترفنا أننا نعيش حالًا من الاستضعاف فهذا أول العلاج وأما «**زوال لاستضعاف**» تمامًا فلا يكون إلا بتغيير ما بأنفسنا صغارًا وكبارًا والدين وولدانًا.

إلا أن «**التغيير بالصغار أسهل**» وأجدى من «**التغيير بالكبار**».

وهذا التغيير يكون بالاستقامة على شرع الله وإيقاف نهر السيئات الجاري لأن «**الذنوب من مؤخرات النصر**».

وبعض الناس ينشغل بالأسباب الخارجية عن الأسباب الداخلية لأنه يقيس المسلمين على غيرهم، ويحسب النصر بحسابات عدوه، وهذا من التخليط لأن «**أمة الإسلام متميزة**» في كل ما يخص النصر.

في أسباب النصر.

وفي صور النصر.

وفي أهداف النصر.

وفي الحال عند الانتصار.

وهذا لا يعني أبدًا الرهبنة وجلب النصر بالعبادة فقط دون الأخذ بالأسباب وهذا هو المعتقد الصحيح الذي يدل عليه حديث: «اعقلها وتوكل».

فـ«**العَدَد والعُدَد**» تكون فاصلًا في النصر وعدمه عند التساوي في المعاصي أما إذا كانت هناك فئة مؤمنة فعندها يكون القانون العامل: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾.

وجنود الله لا يعلمها إلا الله قال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾.

ولأن جنود الله لا يعلمها إلا من خلقها فإنه ينبغي أن نحسن الظن ونتيقن النجح إن كنا قد قمنا بها علينا.

فإنْ تأخر النصر فإن لـ«**تأخير النصر**» حكمًا كثيرة لأن الله هو الحكيم العليم وقبل كل شيء فإن «**الله مولانا**» يعذب أعداءه بأيدينا فكيف يظن فيه أنه يرفع أعداءه على أوليائه إلا إذا كان لذلك حكمة يعلمها سبحانه؟!

ولأن الله مولانا فإنه- سبحانه- علمنا «**قوانين النصر**» التي تضبط أمره وتحكمه أشد الضبط والإحكام.

علم ذلك النبي ﷺ وعنه أخذ العلماء وما زال العلماء يبثون ذلك للناس لأنهم عناصر التثبيت في الأمة.

ومن وسائل التثبيت هذه ذكر «**مبشرات النصر**» للناس، لما لذلك من أثر في إحسان الظن بالله الذي هو واجب على كل حال وهو من أسباب النصر- كذلك- بلا شك.

على أن كل أسباب النصر التي ذكرناها هي مما أُمرن به على كل حال.

فإن الأمة المسلمة لما كانت في ذروة قوتها كانت مطالبة بنفس الذي نطالب به أنفسنا الآن لنحصل النصر ونزيل الاستضعاف.

وإذا وصلت إلى العزة والمنعة والقوة التي ننشدها فسنكون عندها مطالبين بما كنا نطالب به أنفسنا قبل ذلك.

فالحذر الحذر من أن تكون النوايا في الالتزام بشرع الله هي: عودة القدس أو أي أرض سلبت من المسلمين.

وإنما ذلك الالتزام هو أمر الله لنا على كل حال نكون عليه، وما التمكين والنصر بالنسبة إلى ذلك إلا أنه ثمرة الطاعة.

فلا نحن نشغل أنفسنا بأسباب وهمية مدعاة للنصر عن أسبابه الحقيقية الداخلية، ولا نحن ننشغل بنية جلب النصر بالطاعة عن نية الامتثال والتقرب.

فاللهم انصر دينك وكتابَك وسنةَ نبيِّك وعبادَك الصالحين.

وصلِّ وسلِّم على سيد الأولين والآخرين

وآله وصحبه الطيبين

وارضَ عنا كما رضيت عنهم يا رب العالمين.

وهذا آخر ما فتح الله به ومَنَّ.



الفهرس

